صراحة

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (1692) السنة السابعة

الخميس (7) كانون الثاني 2010

فلاح من زمن التوهج

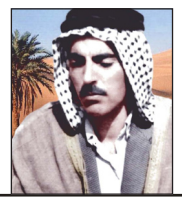

2

كي لاننسى خلف الدواح

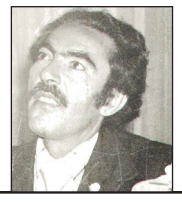

12

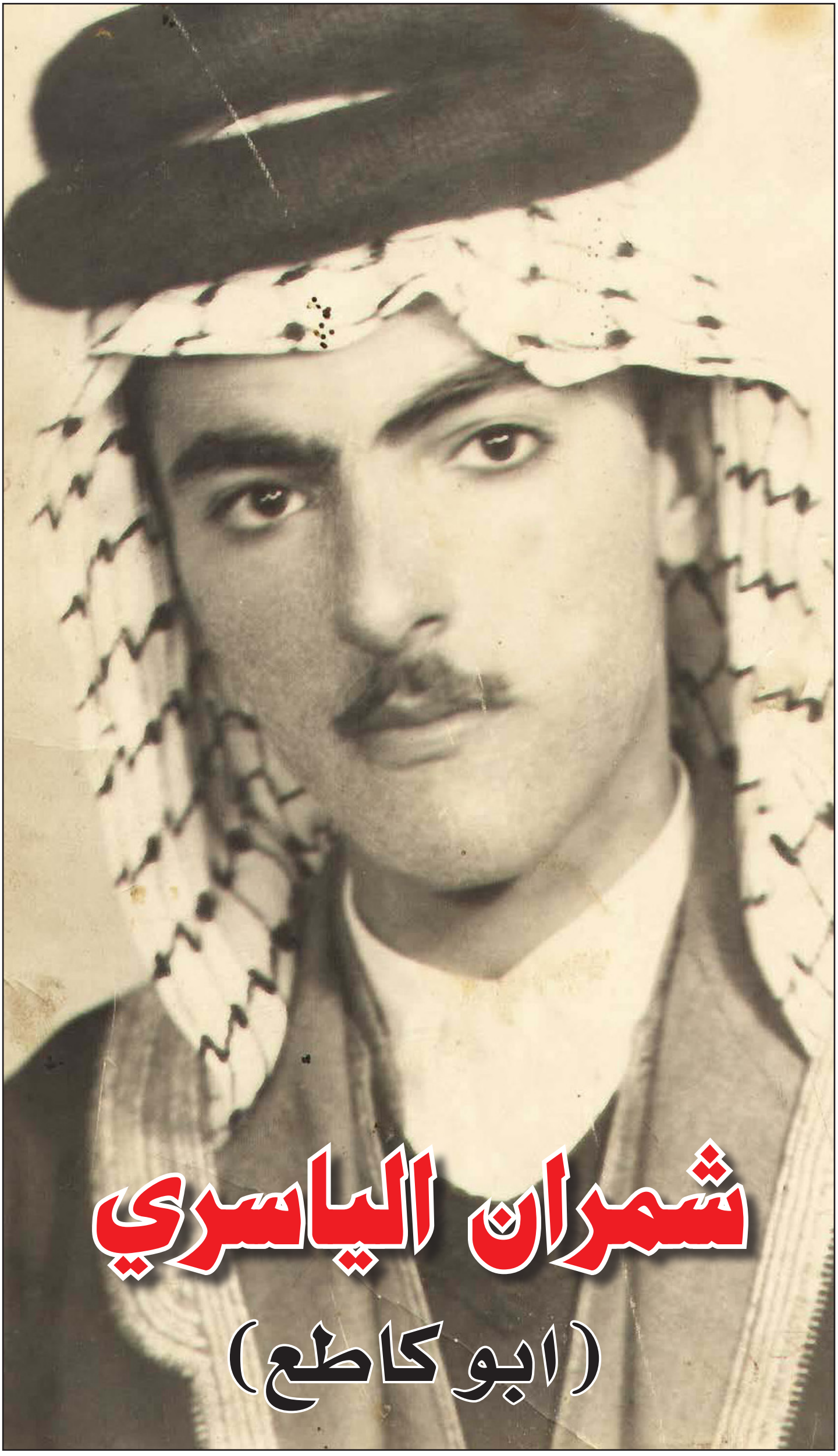

شمران الياسري

(ابو كاطع)

عراقيون من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

فلاح من زمن التوهج

فلاح بسيط خسره الفلاحون قبيل ثورة ١٤ تموز، وكسبه المثقفون بعد الثورة. يضيع، فتجده متنقلا بين الاف الكادحين في ارياف الكوت، يدعو ويحرض وينظم تلك الجموع. يعلو صوته وهو ينادي: انكم امراء ارضنا المعطاء، لا (الاقطاعيين والسراكيل والافندية). لا تخفي شخصيته صورته، انه فلاح ابن فلاح بسحنته التي احرقتها الشمس، عوده ينم عن طينة مجبولة بتراب الارض التي عشقها هو وكل الفلاحين في العراق. بكاه المعدمون في ارياف الكوت، وهو يشد الرحال الى المدينة الكبيرة، بغداد تناديه بعد انتصار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.. قلة من الاصدقاء في العاصمة الثائرة قالت، جاءنا ابو كاطع.

ومن وراء مذياع هنا بغداد، انطلق صوته بلكنة اهل الجنوب، وهو يجيب المذيع حافظ القباني على طلبه: "احجيها بصراحة يا ابو كاطع" فخرجت كلماته جهورية بسيطة ولكنها قوية مدوية، عشقها كل من استمع اليها منذ "الحجاية الاولى"، وباتت تلك الحكايات، من روائع ادب الريف في سجل الثقافة الوطنية العراقية بل العربية، في اثناء وبعد الثورة بسنوات وسنوات.

فائق بطي

ابو كاطع..

كنت في مكتبي بجريدة (البلاد) اتصفح جرائد الصباح، عندما دلف اليها افندي بهندامه، فلاح بملامحه، وبشنبه الكث، فظننته للوهلة الاولى انه مراجع جاء يتظلم، ومد يده وهو يكشف هويته: انا شمران الياسري.

نظرت اليه وانا ابحث عن هوية وراء الصورة، من يكون هذا الشمران؟

قلت له لا صغرا بك، هل استطيع ان اقدم لك اية خدمة؟

ابتسم وهو يداعب شعيرات شنبه، انا ابو كاطع! فنهضت اليه اصافحه بحرارة اللقاء، قائلا: "لعد دحجيها بصراحة من اول مرة!"

ومنذ اليوم التالي: وجدت حكاياته عمودا يوميا في الجريدة يحمل نفس العنوان والمضمون حتى يوم افتقدته شخصيا والالاف من مستمعي الاذاعة وقراء (البلاد) في غيبة امتدت فترة ليست بقصيرة بعد انتكاسة الثورة.

×××

ثلاث محطات جمعتنا بعد السجن:

الاولى: في ريف الكوت، حين تسللت مع الشهيد صباح الدرة وماجد عبد الرضا الى صريفته (ديوانه) خلال العمل السري المعارض لنظام العارفين، عبد السلام وعبد الرحمن، وهو يتحداني في الرماية من بندقية كانت مركونة على جدار الصريفة في الخارج، فنجحت مستغلا خدمتي في الجيش كضابط احتياط سابق، بينما سقط الرفيقان في الامتحان، واجاد هو في الرمي الكثيف، الى ان قاطعه احد الفرسان القادم اليه وهو يتخصر بمسدس والكلاشنكوف على كتفه، مترجلا من على صهوة الفرس، ومقبلا على تقبيل يده كغيره من الفلاحين الوافدين الى بيته (وكره) وهو يسحبها بهدوء ويربت على كتفه، ويطبع القبلة الرفاقية على خد كل قادم.

سألت شمران: ارى الضيف يقبل يديك؟ فيجيب الشهيد الدرة: انه من السادة. الا ترى الراية الخضراء فوق باب الصريفة؟ وقال اخر: بل انه حبيب الفلاحين.

المحطة الثانية: في مقر مجلة "الثقافة الجديدة" في الباب الشرقي مديرا لادارتها بعد ان احتاجه الحزب، كما احتاج هو اليه، بعد انقلاب تموز ١٩٦٨، لاكمال مشروعه الكبير وطبع (رباعيته) الرائعة التي تعتبر من انجح الروايات الغنية في مادتها وفي عبرها ودروسها على لسان شخصية (خلف الدواح) والتي اعيد طبعها مرات عديدة وما يزال الطلب عليها يزداد ويزداد حتى يومنا هذا. وكان ابو كاطع قد افتتح ميزانية طبع الرباعية غير المكتملة في تلك الايام، بالاشتراك سلفا في سعر بيعها لاحقا، وهو اسلوب لم يبدع فيه غير شمران الياسري.. الفلاح المثقف القادم الى المدينة المزدحمة بالمثقفين المبدعين، ليكون بحق، احد اولئك الرائعين الذين اغنوا الثقافة الوطنية بنتاجاتهم الرائدة على مر الاجيال.

المحطة الثالثة: كانت في جريدتي (التاخي) ١٩٧٠-١٩٧١ ، و(طريق الشعب) منذ عام ١٩٧٣..

توليت سكرتارية تحرير جريدة (التاخي) بعد بيان ١١ اذار بفترة قصيرة، وطلبت من رئيس التحرير الشهيد دارا توفيق، ان استعين ببعض المهنيين والكتاب للالتحاق بالجريدة، وكان ابو كاطع احدهم. لم يبخل الشهيد بالعطاء كما عهدته صديقا، فكان لي ما اردت، وعاد شمران الى عموده المحبب (بصراحة) وبنفس المضمون الشعبي وحوارات خلف الدواح، ليضيف الى سجله الابداعي روائع اخرى اجمل واقوى. وعندما انتقلنا الى (طريق الشعب)، ازدادت صراحته سهاما قاتلة ضد كل من اراد اعادة عجلة التاريخ الى الوراء، محذرا ومنذرا من مخاطر الانزلاق وراء سياسات القمع والارهاب الجديدين وتباشير الردة في اجواء (التحالف) تلوح في وضح النهار ناهيك عن ظلام الغدر والفتك (بالحلفاء) الجارية في الخفاء والسر.

كان ابو كاطع يبكر في القدوم الى الجريدة، وما ان يأخذ مكانه المعتاد في غرفة يتقاسمها مع عبد الرزاق الناصري وزهير الجزائري، حتى يخرج (المسدس) الذي نتسلح به جميعا وفق اجازات حمل ممنوحة لنا من قبل (الحلفاء) خوفا علينا ودفاعا عن انفسنا من (الاعداء).. يخرجه من محفظته الجوالة في ترحاله داخل بغداد لا في الارياف، وهو يدمدم مع نفسه: هو احنا وجه مسدسات او سلاح؟ فجاءه الجواب يوما بعد سلسلة من الرفض لعموده اللاذع والشديد من قبل مسؤولي الجريدة حفاظا على (التحالف)، اترك العراق يا رفيق، فان الخطر قادم اليك!

ثم غاب شمران الياسري خارج الوطن، فخسرته الصحافة، كما خسره الاصدقاء ومحبو صراحته التي امتدت الى اكثر من خمسة وعشرين عاما في اكثر من جريدة ووسيلة اعلامية.

×××

التقيته مرة اخرى بعد ان اودعوه في المنفى قسرا في مدينة براغ مطلع عام ١٩٧٩ وكنت بصحبة جلال الماشطة قادمين من موسكو، فاصطحبنا الى صومعته وهي عبارة عن غرفة صغيرة بملحقاتها، حيث يقضي اغلب اوقاته في اعداد رواية جديدة تكمل ما سبق ان بدأه في الرباعية، الى جانب مراجعة العديد من حكاياته عبر مراحلها المهمة بأمل تضمينها في كتاب يؤرخ احداث وسنوات اسوأ ما مر به الشعب العراقي بعد فرحة تموز والجمهورية، والذي أأمل ان تقوم مؤسسة المدى بطبعها في جزءين تخليدا لهذا الفلاح المثقف المبدع، وانصافا للتاريخ الذي يحاولون تشويهه مرارا وتكرارا.

كانت لقاءات جميلة ولو انها لايام معدودة، اعادت لنا ذكريات مهنة "البحث عن الحقائق" لا البحث عن المتاعب كما يقال، وهو لم يزل يبحث عما يريده من الحقائق، ويطمن (وجدانه) بعيدا عن الوطن الذي يعبده، والشعب الذي يعشقه، وحين كنا جالسين في شقة الصديق مجيد الراضي، وثورة الخميني في ذروة تصاعدها، حاولنا ان نخفف من اندفاعاته وحماسته انتصارا لها، لعلنا قد نخذل بحساباتنا غير المتوقعة، فيجيب: اهو.. عود نقول اخطأنا. قابل هي اول مرة نقع بالخطأ! وتمر الايام وتكر، واذا بنبأ الفاجعة يهزنا جميعا..

شمران الياسري في قمة عطاءاته، يهوى.

ابو كاطع يتعرض الى حادث مؤسف بين صوفيا وبراغ.

هل نصدق ما قيل حول الحادث؟

هل مات ابو كاطع، وهل تغيب صراحة حكاياته المميزة؟

انودع ابا جبران ونحن مشتتون في ديار الغربة؟

لكنها الحقيقة المؤلمة والمفجعة..

وهكذا كتب على العراق ان يفقد ثلاثة اعمدة من مبدعيه:

انهم من رواد كتاب العمود الصحفي في تاريخ الصحافة.

انهم شهداء الصحافة:

ابو سعيد – عبد الجبار وهبي، في عموده بجريدة (اتحاد الشعب) سقط شهيدا في زنزانة انقلاب شباط الاسود.

ابو كاطع – شمران الياسري، في عموده بصحف البلاد والتاخي وطريق الشعب، يهوى شهيدا في الطريق العام بين صوفيا وبراغ.

ابو علي – رشدي العامل، في نصف عموده بجريدة التاخي في اواخر ستينيات القرن المنصرم، والذي كاد ان يفقد حياته في قصر النهاية..

ثلاثة غابوا عنا ولكنهم خالدون في ذاكرتنا ووجداننا.

فائق بطي وشمران الياسري الجالسين من اليسار

طريق الشعب
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

شمران الياسري ""أبو كاطع"" نجم ""المقالة المسموعة""

يوسف العاني

من الشخصيات الأدبية والاجتماعية والسياسية الحبيبة الى الناس جميعاً وعلى مختلف مستوياتهم..
والتي ظلت في القلب والبال والروح.. شمران الياسري، والذي صار أسمه على كل لسان..
«ابو كاطع» لم يكن كاتباً ولا متحدثاً اذاعياً فحسب بل كان في تقديري حالة متميزة.. وظاهرة شاعت في مسار حياة الشعب العراقي، عبر كل موقف يمس معاناتهم سلباً او إيجاباً فترى وتسمع كلمات ذاك الريفي البسيط المشحون أمانة واحساساً وشرفاً وكرامة لاتقبل ان يقترب السوء او الجور او الظلم منها، كلمات كالنار.. بل تسمع احياناً إيقاعها فينتفض لحنا بلا كلمات لكنه في الأصل كلمات تتجمع وفق سياق غير تقليدي ليتراكم معنى ينفذ الى الهدف فتتفتح عبره الآذان والعيون من خلال الكلمات مكتوبة او مسموعة. شمران.. جاءنا محملاً بحماسة نظيفة كريمة كالعنبر وادعة كرقة الملائكة شامخة كنبل البطولة..
ولم يكن مدعياً ولامتباهياً.. بل إنسان يسير مع السائرين في درب كفاح الشرفاء الباسلين بلا طلب لجاه او موقع أو «عوض» مادي..
عاش كما الآخرون وراح من دون ان يدري- كما سبقه عباقرة عراقيون في ميدان مخاطبة الناس بالقلم المقروء اولاً.. بالقلم المسموع ثانياً حيث دخل.. «ستوديو الاذاعة» ليكون حديثه ليس حديثاً بل ضربات تؤذي ولا توذي توقظ ولاتخدش الا أصحاب الشر والعابثين بقوت ومصائر الناس ومواقعهم الشريفة، بشر يحيا بسعادة وراحة بال وكرامة.
وترسم- أي الكلمات- صوراً مضيئة في النفس كي لاتتكدس الظلمة ويتيه إنساننا العراقي الكادح والنبيل في دياجيرها ليستلب ويفنى..
شمران- الذي صار- أبو كاطع- قلت صار واحداً مثل آخرين سبقوه- حبزبوز والملا عبود الكرخي.. وخالد الدرة.. ثم وجد انموذجاً سبقه في حدة القلم وشدة الكلمة وعميق التأثير في النفس-أبو سعيد- عبدالجبار وهبي المناضل والكاتب الكبير.
كما هؤلاء.. كان.. وكما كان قبله الفنان العراقي المبدع الذي لم يكن له نظير في مجاله، عزيز علي.. كان عزيز علي يقدم المونولوج.. لكنه لايسميه «غناء» كان أسمه. المقالة الملحنة.. فكلماته ليست للتطريب وللمداعبة المائعة..
ابو كاطع كان يقرأ كلماته المكتوبة وكأنها فن «مسموع يحمل لحنه وايقاعه.. فما يقدمه كان «مقالة مسموعة» أثرها يقترب بل يمتزج بتأثير مقالات عزيز علي الملحنة.. ومقالات ابي سعيد الصارخة بهدوء، والمتلاعبة بعمق في النفس كبرناردشو.. الذين فتحوا ابواب المعرفة بالحالة الانسانية قبله كل على قدر من الجدارة والاسلوب المتميز..
ابو كاطع.. كان. واقول على مسؤوليتي.. نموذج الزمن الذي عاشه.. بل سبقه بوعيه الثاقب.
ليرسم ماسيكون..
كنا نهرع يوم كل اربعاء لنجلس امام الراديو نستمع الى «عزيز علي»... كان الناس يهرعون قرب -الراديو- ليستمعوا الى - ابو كاطع- يضحكون..
وينصتون.. ويضربون يداً بيد.. وينهضون وقد شحنهم ابو كاطع بمثل خيرة وبحالة من وعي مضاف بماهم فيه.. وكان تأثيره وجهاً من وجوه المسرح السياسي الذي نعرفه. كان معنا في فرقة المسرح الحديث. عضواً فاعلاً فيها لا ممثلاً ولامخرجاً..
لكنه كان مشاركاً في كل ماتقدم..
وكان مشاركاً في اعمال اذاعية..
تكتب للفلاحين او البسطاء..
ظل شمران صديقاً حميماً مثل قالب الثلج في تموز..
وكنت أشتاق اليه اذا غاب.. وحين غادر العراق وفرقنا.. وافترقنا كل في مكان.. كان مكانه في القلب واثره في الكثير الكثير مما نكتب او نستذكر فشمران.. وابو كاطع الكبير نجم فن «المقالة المقروء» عند ابناء الشعب على مختلف مستوياتهم وظل حتى اليوم- حالة نادرة- نرجو ان يحتذي له هذا الجيل فهو بحق أستاذ ومدرسة وإن انس فلن انسى تلك «الهوسة» التي قاد بها مسيرة الفرقة بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ومعه عبدالمنعم محمد علي وعبدالامير العبود حيث وصفنا المسرح واعطيناه التعريف التالي:
«المسرح مكتب- كل الوادم تدرس بيه!

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

شمران الياسري ظاهرة إبداعية لا يمكن استنساخها

قراءة وصفية لرباعية شمران الياسري

عبد الإله الصائغ

٠حال أولئك الذين حاولوا استنساخ تجربة شمران الياسري يدعو إلى الرثاء حقا ! فهذا المبدع الجماهيري وإن كان مدرسة يمكنها أن تخرج عشرات المبدعين الملتصقين بالصدق قبل النجومية، ولكنه عصي على الاستنساخ ! فمن تأدب بأدبه استطاع أن يتكون وأن ينمو ولكن الذي أراد سرقة تجربته صار مدعاة للشفقة قبل السخرية ! فلم تكن جاذبية النص الروائي عند الياسري بسبب من لغتها الشعبية وهمومها الطبقية كما يتهيأ لبعض الدارسين ! بل إن الجاذبية عائدة إلى موهبة فسيحة ودربة صبورة لا تعرف الكلال والملال! ورؤية صافية للمساحة المشابهة ! . في رباعيته كان رائدا بامتياز في تطويع القهر الطبقي للعمل الروائي الصعب ! فليس كل مناضل قادرا على أن يكون شمرانا ولا كل رواية قادرة على أن تمثل الرباعية ! ومن هنا أضاع المقلدون شطرا مهما من تجربتهم وعمرهم في ملاحقة المستحيل ! ولهذا المحور شجون يمكن العودة إليها في مناسبة أخرى ! .

نحن هنا بصدد قراءة الرباعية قراءة وصفية (بنيوية) بهدف إضاءة بنيات العمل الروائي ! في الرباعية ثمة أبطال شعبيون كتب عليهم مصارعة القهر السياسي وقيادة أحلام الجماهير الفقيرة نحو الشمس فالروائي شمران الياسري ومن خلال روايته المهمة التي لخصت تاريخ العراق الدموي استطاع إشراك القارئ مع أبطال الرواية ليشهد صراعاً بين الجماهير الحالمة والقلة الظالمة.. روايته التي صدرت عام ١٩٧٢م بأربعة أجزاء هي ١/ الزناد (القداحة) ٢/ بلابوش دنيا(تعساً للدنيا) ٣/ غنم الشيوخ ٤/ فلوس حميد.. وقد شاء شمران الياسري أن يختار للصراع فترة مهمة من تاريخ العراق فبدأت روايته بعد ثورة العشرين (التي فجّرتها جماهير الفرات الأوسط فانتشر أوارها في ربوع العراق كافة..) بثلاثة أعوام ثم انتهت أحداثها بعد أحداث ١٤ يوليو تموز ١٩٥٨م فاختار الروائي ثلاثة أجيال غطت هذه الحقبة، خمسة وثلاثين عاماً مصوراً أثر التطور الحضاري في تطور مفهوم الصراع عند هذه الأجيال، فالجيل الأول ورث التقاليد الصحراوية والبدوية والتقاليد الزراعية الريفية على حد سواء فكان نهشاً للعصبيات القبلية والمكانية فتأصلت لأسباب مغايرة فكرة البطولة والمروءة والكرم في حياته القاسية، برغم إن الاستغلال كان رضيعاً ولم يتبين هذا الجيل أثره بسبب سلطة القبيلة التي خففت كثيراً من سلطة الاستغلال الإقطاعي أو الرأسمالي، وسعدون المهلهل وهو الزعيم مثلاً كان يتصرف كواحد من أفراد القبيلة!! وحين خضع العراق للاحتلال الإنجليزي بعد معارك النجف والرميثة والسماوة وقرية السادة (آل بو أذبحك) في الحلة والرارنجية في الأعوام ١٩٢٠/١٩/١٨/١٧ اجتهدت المخابرات البريطانية للي الذراع القوية التي بطشت بالعسكر الإنجليز ومرتزقتهم من الهنود السيخ والزنوج العمالقة وهذه الذراع هي شيوخ القبائل فعقدت معهم صفقات دنيئة لتغدق عليهم الأموال بلا حساب فضلاً عن تزويدهم بالمضخات والأسمدة والبذور، وهكذا حولت هذه المستجدات الزعيم الطيب سعدون إلى رجل آخر لا يشبهه، فبعد أن كان هذا الزعيم يعتمد على اشتراطات القبيلة والوطن صار يعتمد على اشتراطات العمالة والربح! ثم يجيء دور الصبي فالح ابن الزعيم سعدون بن مهلهل ليجيء زمان أكثر عتمة وقهراً ومكراً.. فهذا المراهق الغرّ وجد نفسه وسط فائض من الأموال فأحاط نفسه وملأ جلعته (قلعته) بالأزلام الذين يحذقون الدعارة فإذا الناس تترحم على الأب مع معرفتهم بظلمه وخيانته لقبيلته ودينه الذي كان يتظاهر به.. بيد أن الأب الظالم كان الأرحم من ابنه الغر المغرور.. فتمر السنون ثقالاً فيظهر على سطح الرواية (ضاري) ابن فالح سيئ الصيت وحفيد الزعيم سعدون وضاري من الجيل الثالث.. فتهيأ للقهر والمجون ليستعين بأزلام أبيه وجده المخضرمين في فنون الغواية وإذلال الناس لسبب أو من دونه، لكن ما حدث يوم ١٤ تموز يوليو ١٩٥٨م كان الزلزال المدمر الذي حاق به وبأزلامه وبطانته وتجمع الناس حول المذياع ليستمعوا إلى صدور قانون الإصلاح الزراعي الذي وعد الناس بزمن أخضر! وبالمقابل ثمة البطل حسين ابن العشيرة.. ذلك المؤمن بقيم ثورة العشرين فهو يتذكر أمجادها وبطولاتها ويحفظ عن ظهر قلب أشعار الثوار العشرينيين في مضافة الزعيم سعدون بن مهلهل، بل انه شاعر العشيرة (المهوال) وحامل همومها وتقتضي بؤرة الصراع في الرواية أن يرتطم حسين بزعيمه سعدون بعد مقابلة هذا الزعيم للمستشار الإنجليزي! ولأن الغلبة للقوي فقد طلب سعدون إلى حسين المتمّرد بـ(الجلوة) أي الجلاء عن مكان قبيلته إلى مكان آخر بعيد.. فاستجاب خوفاً على حلمه الثوري من أن يغتاله سعدون. وقد التحق به خلف وأبناء صكر هؤلاء الفتيان المعجبون بحسين والمتضامنون معه برغم إن سعدون لم يطلب إليهم الجلاء! وقد استدعى الصراع بين حسين وسعدون إضافة عنصر جديد وهو المرأة الفاتنة ليكون الصراع أكثر تماسكاً وجذباً.. وكان الزعيم قد وعد حسين (وعد شرف!!) أن يزوج ابنته الجميلة (حسنة) من ناصر (ابن حسين)، ولكن وضع الزعيم الجديد الخاضع لتوجيهات المستشار الإنجليزي وتقاطع هذا الوضع مع تحديات حسين جعله ينكث وعده ولن يرقّ قلبه لمشاعر ناصر الشاب البريء الوديع ولا لدموع ابنته حسنة التي اكتشف إنها مغرمة بحبه حدّ استعدادها للتضحية بحياتها من أجله! فيقرر حسم الموقف ويلهمه غضبه الملتهب فكرة بشعة وهي أن يزوج ابنته حسنة (هذه الصغيرة التي مرضت وباتت حياتها مهددة بسبب موقف أبيها) لشعيب ابن زعيم القبيلة المجاورة ويدعى صلال! وربما زاد من عنجهية سعدون وقسوته على ابنته الصغيرة العاشقة ما سمعه من الوشاة: أن ابنته حسنة وحبيبها ناصر قد أقسما على الوفاء حتى لو كان الثمن حياة كل منهما.. وأنهما حين يئسا من رحمة سعدون ارتبطا بعلاقة غير مشروعة!! وهذا ما حصل فعلاً والذي لم يكن قد سمع به سعدون هو أن ابنته حسنة أمضت الليلة التي سبقت ليلة زفافها إلى شعيب.. أمضتها بطولها على فراش حبيبها ناصر وهذا

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

يعني إن الحبيبين ناصر وحسنة قد عالجا الخطأ بالخطأ والجريمة بالجريمة وهي إشارة حاذقة من شمران الياسري مؤداها إن الصراع الحتمي بين الخير (الذي رمز إليه بحسنة وناصر) والشر (الذي رمز إليه بشعيبث وسعدون) لا ينبغي أن يدفع الخير إلى استعارة أسلحة الشر مهما كانت الأسباب!! ولم يقف ناصر عند نقطة (كسر التابو) فوقف في وجه الزعيم سعدون وأولاده وأزلامه وحرَّض الفلاحين والمعوزين والمقهورين ضد أطماعهم وجشعهم.. ولم تكن نقلته من الريف (النقي) إلى المدينة (الملوثة) أمراً عابراً وسهلاً.. فالمدينة عهد ذاك كانت تغلي كأنها على فوهة بركان! فيشتغل ناصر عاملاً في شركة نفط كركوك ويتلقى من رفاقه ثقافة سياسية جديدة لا عهد له بها من قبل ويتفاعل مع هذه الثقافة ويحبها ويستزيد منها!! فإذا حدثت انتفاضة (كاورباغي) أسهم فيها إلى جانب الجماهير الغاضبة.. فاستشهد مع من استشهد من رفاقه وأصدقائه.. وينبثق من هنا دور أخ الشهيد ناصر واسمه (الملا نعمة).. وهذا الملا كان ناقماً على الوضع المتردي للقرية.. ناقماً على المسؤولين عن عذابها من الزعماء والعملاء والغوغاء فيضطر بعد أن أيقن أن الخطر بات يهدد حياته لمغادرة القرية إلى المدينة! وثمة دور آخر مستجد لفاضل وكامل ابني ناصر وهما يمثلان الجيل الثالث! كامل اشتغل عاملاً في مطبعة وفاضل معلماً في مدرسة ومع مجيء ثورة تموز يوليو ١٩٥٨م وقف الثلاثة إلى جانبها وأسهموا في تعزيز انتصارها!! فضلاً عن الأبطال السلبيين الذين تموضعوا في خندق جماعة سعدون.. مثل أحميّد أبو البينة.. هذا البطل السلبي المحتقر من رجال القبيلة ونسائها وأطفالها فالقرية تعرف جبنه منذ أن دارت معركة بين آل مهلهل وآل صلال.. وتعرف أيضا بخله الذي بات مضرب المثل فإذا جاء دور ابنه صالح ليعمل راعي غنم للشيخ بانت الصفتان الذميمتان اللتان ورثهما عن أبيه.. فالثابت أن صالح استغل رعب الشيخ من الخطاب السياسي لثورة يوليو ١٩٥٨ فتظاهر بالحرص على غنم الشيخ.. وأخذها منه ليرعاها ويحميها ويبعدها عن أعين الثوّار والحسّاد!! فوثق به الشيخ في لحظة ضعفه ورعبه.. وحين أيقن صالح إن زمان الشيوخ قد ولى وأن الثوار يقبضون على الوضع الداخلي بيد من حديد.. قرر استغلال الموقف ليعبّر عن انتهازيته ودناءته المتأصلتين في دمه.. فيبيع الغنم بثمن باهظ لم يحلم به من قبل ثم يهرب بعيداً بأحلامه الصفر: شراء بيت فخم وسيارة فارهة آخر موديل وشراء زوجة جميلة جداً!! لكنه يفاجأ بالواقع المرّ الذي يشظّي أحلامه حين تأيد له أن الدولة استبدلت النقود القديمة بنقود جديدة فما عادت لنقوده قيمة إطلاقا وهكذا ينفرط عنه المنتفعون الذين حلموا معه بالثراء والجاه والمتع!! الرواية كما مرّ بنا مبنية على معامل الصراع فاضطر الروائي شمران الياسري إلى جعلها طويلة إذ زادت على ستمائة صفحة فاستعان باسترجاع عدد من السنوات المشحونة بذكريات الجهاد ضد الأجنبي في معركة مايس ١٩٤١ التي دارت بين الثوار بقيادة العقداء الأربعة والإنجليز في مدينة (سن الذبان) ومعركة ١٩٤٨ التي دخل فيها الجيش العراقي أرض فلسطين ثم معركة ١٩٥٦ التي انتصر فيها الشعب المصري على أساطيل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وانعكست على الشعب العراقي الذي ساند أشقاءه في مصر فتلقّى أبناؤه رصاص شرطة نوري السعيد لقد أهدى شمران الياسري لمكتبة الرواية العربية (والعراقية بخاصة) رواية ذات أبعاد فنية متماسكة وهموم أيديولوجية واجتماعية مركزية، فأنت أمام أجيال من الأبطال تنمو بشكل تلقائي جسدياً وروحياً واجتماعياً دون ان تستشعر ثقل الزمن ووطأة طول الرواية! وإذا كان من مزية لعنصر الصراع في هذه الرواية الشاسعة فهي أن الصراع نابع من الحياة التي نشأ فيها الروائي، وأن هموم هذا الصراع ليست هموماً خاصة، بل هي هموم المتلقي فضلاً عن إن الصراع كان بطل الرواية، أو المحرِّك الذي ولّد شحناتها الجمالية والأيديولوجية! وإنما يلاحظ الدارس أن الروائي المبدع شمران الياسري قد أثقل الرواية بمحاولته الصابرة في نقل التفاصيل الجغرافية والتاريخية والاجتماعية بأقصى درجات الدقة فلم تفت روايته شاردة أو واردة كما أثقلها في زعمنا بثقل الأفكار والقناعات التي يحملها أبطال روايته من الفلاحين البسطاء الذين ثاروا ضد الاستعمار الإنجليزي بسبب أن شيوخهم طلبوا إليهم ذلك معزّزين بفتاوى علماء الدين في النجف وكربلاء والكاظمية!! ومعلوم أن الروائي حذر دائما من إلباس أبطاله ثياباً أوسع من أجسامهم أو أضيق زد على ذلك أن الروائي شمران الياسري –دون قصد بالتأكيد– كرّس فكرة الشر الوراثي والخير الوراثي فالجد الذي قهر الفلاحين يورث ابنه كراهية الفلاحين، والابن يورث الحفيد وهي فكرة لا تصح دائماً، فقد تلد أسرة إقطاعية ثائراً دون إرادتها ورغبتها وقد تلد عائلة ثورية ابناً خائناً.. إن قدرية الخيانة على جيل من الأجداد والأبناء والأحفاد هو منزلق على أي حال! وما يتبقى لنا هو الأخذ بمبدأ لذة الخطاب السردي الروائي إذ لا يمكن القبول بفكرة خلو أية رواية من عنصر الفكرة! فالفكرة مكلفة بمسؤوليات كبرى داخل الرواية مما يتعيّن عليها انتقاء المكان والزمان والشخوص والحوار بحساسية جمالية عالية! والروائي الموهوب كدأب شمران الياسري لا يثقل الفكرة بجسد الرواية كما أنه لا يثقل الرواية بأعباء الفكرة! ثمة تماه محسوب وتلقائية حاذقة! والفكرة مهما كانت عظيمة وإنسانية لن تصنع رواية مقروءة وخالدة ما لم ترتكز على عنصر الإمتاع والإدهاش أو ما يسميه رولان بارت لذة النص! أما الزعم بأن الرواية ينبغي أن تكون صادقة أمينة وهي تنفذ الفكرة بتقنياتها الذاتية والمكتسبة (المقتبسة من مهارات الروايات الأخرى) فهو زعم لا يلجأ إليه سوى الروائيين ذوي المواهب الواهنة الضعيفة! نقل عن جورج اليوت١٨١٩–١٨٨٠ في صفحات من مذكرات قولها : (ما دامت الغاية هي إمتاع القارئ فانه يترتب على ذلك أن يكون ثمة طرق تيسر بلوغ هذه الغاية). وكان جيرار نرفال (١٨٠٨–١٨٥٠) وهو الروائي الرومانسي أكثر زملائه حماسة واحتفاء بعنصر (الفكرة/المتعة) فحين كتب روايته (رحلة إلى الشرق) حافظ على فكرتها الرئيسة وهي أن الإنسان المبدع مخلوق غريب حتى بين أقرب الناس إليه وأن محاولاته للانسجام مع المجتمع المدجن أمر مستحيل!! ٥ وذلك ما أردنا التلبث عنده ! فلقد أسهمت رباعية شمران في تحبيب المكابدة الفنية بمكر فني ! بعبارة ثانية إن الرواية نقلت الواقع الخشن بكل ثقله وعذاباته إلى الواقع المتخيل ! بعبارة ثالثة إن الرباعية نقلت الوقائعية التاريخية والنضالية إلى الجمالية الفنية وبهكذا أسلوب يمكن ضمان جذب المتلقي إلى الهم الطبقي من خلال الخطاب الجمالي ! ولقد برع شمران الياسري في منح البهجة وهو يمسك بعصا المايسترو لكي يصل إلى لحظة التسلطن وهو يواشج بين إيقاعين، إيقاع الفكرة وإيقاع الأسلوب دون إقحام أو تسلط ! يقول الروائي غائب طعمة فرمان في مقدمة الجزء الأول من الرباعية في أسلوب شمران الياسري الروائي بمقربة من فكرة النص المبهج: عالم مجسد رحب معمور بأنفاس الريف وأناسه صنعه قلم ذو دراية ممتازة بما يريد أن يقول وحب عارم للوسط الذي يصوره.. انه إنسان نابت في أرضه يعرف كل شبر منها عاليها وسافلها حلوها ومرها مذاق ثمارها وملوحة عرق الكادحين فيها ! يتغنى بشفافية روح بشجاعة قلب وحكمة فطرية ومكتسبة بما يمثل الهيكل الإنساني لحياة ابن الريف لقد وظف شمران نباهته ورهافة حسه سخريته ووضع كل ذلك في يد صديقه وأخيه الفلاح ليلتمس مواطن الضعف والمأساوية في حياته ويجعل من حياته البسيطة في أحيان كثيرة قصصا يمكن أن تروى وتجلب التعاطف وتسجل تاريخا لم يجرؤ المؤرخون على تسجيله. إ. هـ كما يضيف الدكتور حسين شعبان إن أبا كاطع : لم يكن متفرّجاً على ما يجري في الريف وحياة القرية، في إطار مشهد خارجي وتعاطف إنساني، بل كان من الريف وكتب عنه، مقدماً البيئة الريفية بقدر من التشويق والتوتر والانفعال، عاكساً حياة الفلاحين والريف العراقي، كمقطع من الدولة العراقية، التي أرخ لها في رباعيته من العام ١٩٢٣ وحتى العام ١٩٦٣ و... يمكنني القول إن فصلاً مهماً من تاريخ العراق السياسي، كان سيبقى غير مكتوب، ولربما مجهولاً بما في ذلك التراث الشعبي لولا موهبة أبي كاطع الذي امتلك أدوات تصويرية وقدرات تخيليّة لالتقاط واقع الريف العراقي، برؤية شفافة، بحيث اختلط الواقع المعاش بالخيال المتصوّر في حبكة درامية، أكتمل بناؤها في حالات وظلّ غير مكتمل في حالات أخرى. وبهذا المعنى يصّح قول مكسيم غوركي بأن التاريخ لا يكتبه المؤرخون بل الفنانون الذين يكتبون التاريخ الحقيقي للإنسان. إ. هـ ! فسلام عليك يا أبا كاطع الياسري وأنت تجود بمهجتك لتصنع أفقا للرؤية صافيا في روايتك، في عمودك الصحفي، في حكاياتك الإذاعية، في غربتك، في موتك التراجيدي ٦

يمكنني القول إن فصلاً مهماً من تاريخ العراق السياسي، كان سيبقى غير مكتوب، ولربما مجهولاً بما في ذلك التراث الشعبي لولا موهبة أبي كاطع الذي امتلك أدوات تصويرية وقدرات تخيليّة لالتقاط واقع الريف العراقي، برؤية شفافة، بحيث اختلط الواقع المعاش بالخيال المتصوّر في حبكة درامية، أكتمل بناؤها في حالات وظلّ غير مكتمل في حالات أخرى.

.. نتذكر ابو كاطع وخلف الدواح

يوسف أبو الفوز

يستقبل الشيوعيون العراقيون وأصدقاؤهم، هذه الأيام، ذكرى صدور ...اح الشعب» في نهاية تموز ١٩٣٥، كأول صحيفة عراقية تصدر سراً ...حمل اسم الحزب الشيوعي العراقي في صدر صفحتها الأولى.

...وفي هذه المناسبة واذ تجد ...فتها «طريق الشعب» اليوم ...يلها بانتظام الى ايدي قرائها ...شيرين، تعود بنا الذاكرة الى ...ديد من الاسماء اللامعة في ...حافة الشيوعية العراقية، التي ...مت في رسم ملامحها المشرقة ...حافة وطنية وديمقراطية وتقدمية ...ة، واحتلت موقعا بين رموزها ...جود الصحافة العراقية باسرها.

...من هولاء الصحفي والكاتب المبدع ...ران الياسيري - ابوكاطع، الذي ...ت بمقالاته على صفحات «طريق ...عب» في سبعينات القرن الماضي، ...ط متابعة واعجاب وتاثر دائم من ...ب قراء الجريدة.

...ولا نبالغ إذا قلنا ان الكثير من ...ء طريق الشعب كانوا يبدأون ...تهم للجريدة من عمود أبو كاطع، ...رفة تعليقات خلف الدواح ...يحاته اللاذعة حول تدهور ...ضاع السياسية والاجتماعية في ...نا.

...لم يلجأ ابو كاطع يوما ...

للتنظيرات عند حديثه عن هموم المواطن العراقي، وتدهور الأوضاع في بلادنا. لجأ الى حكايات خلف الدواح، وجعله يتحدث عن محنة الكادحين وسعيهم لتوفير لقمة العيش وسعيهم الى حياة افضل، مستثمرا كل ما هو بسيط ومعبر في

□ ابو كاطع - ١٩٥٩

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

حكايات شمران الياسري (أبو كاطع)

مشهد ينتمي إلى الحياة . . . وقوة حاضره

د. جمال حسن العتابي

في الطابق الثاني من عمارة تطل على شارع فسيح يؤدي الى ساحة التحرير، على يسارها يرتفع نصب جواد سليم، شغلت مجلة (الثقافة الجديدة) جناحاً صغيراً من تلك العمارة، تحت سقف هذا الجناح التقيت أول مرة الكاتب والصحفي والروائي والمناضل شمران الياسري (ابو كاطع) في اوائل سبعينيات القرن الماضي،

عندما عادت المجلة الى الصدور من جديد، وقبل هذا التاريخ كانت شهرة (ابو كاطع) قد امتدت الى اعماق ريف العراق ومدنه، بعد ان قدم نفسه اذاعياً لامعاً في برنامجه (احجها بصراحة يبو كاطع) بعد تموز ١٩٥٨ ومنذ ذلك التاريخ بدأ نجم (ابو كاطع) يعلو بلمعان خاص ومتفرد ولفت اليه انتباه جمهور عراقي واسع، من فئات وشرائح متنوعة لم يقتصر على ابناء الريف فحسب بل من نخب مثقفة ومدنية كذلك.

فاختصر طريقه الى النضج بوقت مبكر، وسار الى استقلال اسلوب اذاعي في برنامجه هذا غير هاو للمجاملة او المساومة. فاستطاع الامساك بالخيط منذ الوهلة الاولى الذي يشد المبدع بجمهوره المتلقي (المستمع او القارئ) بجدارة اخلاقية ومعرفية يعود اساسها الى توافر قدرات الموهبة الى جانب علاقات النشأة والوسط الذي عاش فيه، وحساسيته المفرطة ازاءه واستيعاب تفاصيله فضلاً عن انتمائه السياسي الوطني كل تلك العوامل منحت شمران تفردا في مساحة الجمال التي شغلها لسنوات عدة من حياته فجاء منجزه مكتنزاً وحافلاً بالفرادة، وممتلئاً بالوضوح في حكايات متقنة ومفعمة بالخبرة والمعرفة والوعي الى جانب توفر قدرات الموهبة والاطلاع على الاتجاهات الفكرية والادبية.

اتذكر جيداً ذلك اليوم الذي دخل فيه شمران بزيه القروي متلفعاً بعباءة ذات لون بني يعلو هامته عقال (حياوي) غليظ استقر على يشماغ يوحي لاول وهلة بانتمائه الى ريف الغراف المنحدر من مقدم سدة الكوت، والمتجه صوب الجنوب بهدوء ليتشتت ماؤه في اهوار الناصرية بعد سد البدعة في الشطرة في هذا المكان ولد وعاش شمران.. هنا عالمه الحقيقي وفردوسه وامتلاؤه من طينه ومائه نبتت قيمه الانسانية، وامتزجت افكاره وذكرياته واحلامه.

وجه مستطيل يشع بالبياض، جبهة عريضة واسعة بهية، شارب اسود نافر، عينان لامعتان، تشعان بريقاً ذكياً، قامة اقرب الى الطول، وقوام رشيق، مع تقوس خفيف في عظام الظهر لايدل على تقدم في العمر، بل هو دليل حياء وخجل وأدب.

تلك اولى الانطباعات التي تناهت الى مخيلتي وانا اتأمل وانتظر ما سيسفر عنه قدوم هذا (القروي) الى المجلة...

قدمني اليه الشاعر الفريد سمعان، بصفتي خطاطاً ومصمماً للمجلة وهو مدير التحرير الجديد لها ،بدا وجهه منبسطاً وثمة شيء كامن في اعماق عينيه، والغرفة الصغيرة احاطها سكون وجل، كنت ارقب حركة شفتيه التي صدرت عنهما بضع كلمات اضافت وقاراً جميلاً لسكون القاعة، مع شيء من الصرامة ثم بدأت كلماته تتدفق وتتواصل منذ تلك اللحظة اخترقني احساس بانشداد سحري لهذا الريفي الجميل.. لتلك الشخصية التي لا تنطوي على اي غموض لان كل ما نم عنه في تلك اللحظات

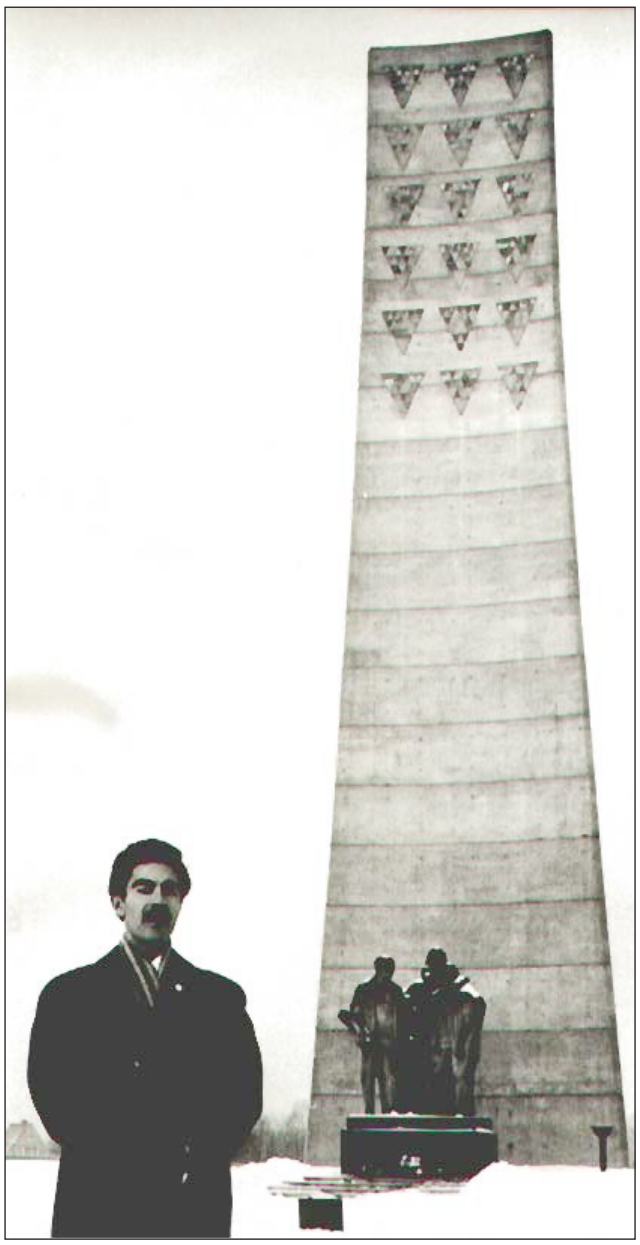

يدل على براءة معلنة، وطفولة مدهشة فكانت ايذاناً ببدء رحلة ممتعة وجميلة ورفقة بعلاقة طيبة وصادقة وحقيقية تشكلت بسمات تلك الحقبة من الزمن بكل تفاصيلها وتشابكها فارتسمت فيها معالم (طريق التطور اللارأسمالي صوب الاشتراكية!!) الاطروحة (النكتة) التي ظل ابو كاطع يسخر منها طوال سنوات (التحالف الجبهوي!!) ومن كل الشعارات الميتة فكانت كتابته مصدر قلق وازعاج للحزب (الحليف) من جهة ومصدر احراج لرفاقه، الذين كانوا يحرصون على (تطوير العلاقات الجبهوية وعدم تصدعها!!)، فاوقفوا قلم (ابو كاطع) لبرهة من الزمن خشية ضياع اللحظة التاريخية في (انجاز مهام المرحلة الوطنية الديمقراطية) للانتقال الى (الاشتراكية!!).

ان جموح واندفاع شمران الياسري في كتابة عموده الصحفي الذي دأب على نشره يومياً في جريدة (طريق الشعب) سبب متاعب جمة لرفاقه، وهم يتعاملون بحذر شديد مع معطيات الظرف الدقيق انذاك.

وهنا استذكر حكاية نشرها ابو كاطع كانت بعنوان: (بيها برغي سايف) اي بمعنى (فيها صامولة عاطلة).

ملخص تلك الحكاية ان احد الشيوخ الملاكين والميسوري الحال، وجد ضرورة في نصب ماكنة طحن للحبوب في قرية توفر له دخلاً اضافياً استثنائياً فاستعان باحد الميكانيكيين الماهرين الذي تولى نصب وتشغيل الماكنة ومن ثم صيانتها وادامتها وبدأت عجلة الماكنة تدور على يديه وتحت اشرافه ووجد الشيخ ان من المناسب تدريب احد اولاده على يد هذا الاسطة، فيضرب بذلك عصفورين بحجر، وسرعان ما اعلن هذا الصبي بعد فترة قصيرة من المعايشة عن ادعائه باتقان الصنعة، وقدرته على ملء الفراغ الذي سيتركه (الاسطة) حال مغادرته القرية، وهو ماحصل فعلاً اذ اودع هذا الرجل المهمة لهذا الصبي الذي شعر بالزهو والانتفاخ حالما لبس بدلة الميكانيكي، وشاءت الاقدار ان تخضع قدرات (الاسطة الجديد) الى الاختبار والامتحان الصعب، فتوقفت الماكنة عن العمل، ولم تعد عجلاتها تدور فظل هذا الصبي يدور حول الماكنة وهو في حيرة وذهول ونظرات ابناء القرية الذين تجمعوا حوله تراقب حركاته البليدة..

بانتظار ممل .. وفي لحظة ما صاح باعلى صوته: وجدتها (بيها برغي سايف)!!

اراد ابو كاطع بتلك الحكاية ان يعيد صياغة الهم العراقي انذاك اذ لم يكن منعزلاً عن الحياة، وهو لايريد ان يمضي بذاك الوهم والكذب الذي يسوق التضليل او الادعاء ان هذا الكيان المزعوم كيان منخور، متهاو.. وتلك الماكنة ليست سوى هيكل بلا حراك، وبلا حياة و(البرغي السايف) سيقوض هذا الكيان، ويبدد السراب والاحلام.

تلك محنة (ابوكاطع)، افكار محملة بلسعات، مقطوعات ثرية، متوهجة عميقة الاثر، كبيرة المغزى، بلغة قادرة على الاكتشاف وبذات الوقت الحرص على الوفاء لابعاد العمل الفني كافة كما تجسد في رباعيته الروائية المعروفة، اذ اضاف فيها مساراً جديداً للثقافة العراقية يقف بصلابة في مساحة الحرية الممنوحة له.

شمران الياسري في كتاباته ينسج باتقان الفكرة اولاً، ثم العبارة انه مصور دقيق للشخصيات، فنان ومفكر، ومادته الصحفية، تضم حشداً من الصور اللامعة، التي تأتي اشبه بالعاصفة واحياناً تتراءى هادئة بصورة متزاحمة ولماحة، وهو في كلتا الحالتين مكتشف للمعاني الانسانية في الحياة، عبر ما انتجته عقليته النيرة، ما تدعه منفتحاً على الدوام على ديمومة تلك الحياة وجمالها.

لقد مر شمران باصعب تداعيات المرحلة تلك، وعاش صراعاً فكرياً وسياسياً ومهنياً حاداً، ظل يكابده بألم ممض، فاختار الرحيل عن ارضه واهله واصدقائه ومحبيه، وعن حزبه الذي منحه كل شيء في حياته، كان رحيلاً قسرياً، اذا جاز القول، وصعباً فسكن ارض الغربة، مختنقاً بهواء لم يألفه ، سلب منه هويته وجموحه وصبواته وجلجلة ضحكاته، مودعاً (خلف الدواح)، و(فلوس احميد)، ليصرخ من جديد بوجوه الاقنعة المزيفة (بلابوش دنيا)!!

هل لنا ان نتحدث عنه بعد اكثر من عشرين عاماً من الرحيل، مثل اي ماضٍ؟ كيف تركناه ان يرحل هكذا، وهو المكتنز باشياء كثيرة في حياته، اصطياد المودات، الدعابة، المشاكسة، البساطة والعفوية، التوتر، الخيال الفسيح، الانشغال بالعمل الفني والمهني والسياسي والوفاء بابعاده، الصداقات الجميلة مع كل الاجيال، وسط العديد من المخاوف والمخاطر التي تحيق بهاجسه اذ توسعت مساحة الجدل السياسي والفكري.

في ذاكرتنا قصص كثيرة عن (ابو كاطع) وفي ذاكرته الكثير من الاسرار التي نجد من الضروري توثيقها وكتابتها، وتقع مهمة البحث عنها وتسجيلها على ابنائه واصدقائه القريبين وهي دعوة كذلك لقراءة نتاجه ومنجزه الابداعي اذ يحتاج الى وقفات كثيرة وتأمل عميق، لكي لاتمر تلك المنجزات دون حفاوة، وهي كذلك فرصة للتعرف على وطنيته التي لا يختلف فيها اثنان.

صديقي شمران..

لا اعرف لماذا استحضر الان حواراً للحلاج مع احد الشباب محذراً اياه بالقول:

اياك والسياسة، اياك والاصلاح، من حاول اصلاح الامور ذهب سعيه هدراً، هنا اقترب الشاب منه حتى لاصقة وهمس في اذنه ودمه غدراً.

×××

ابو كاطع (شمران الياسري)، كان صديقا ورفيقا رغم فارق العمر بيني وبينه، عملت بصحبة عدد

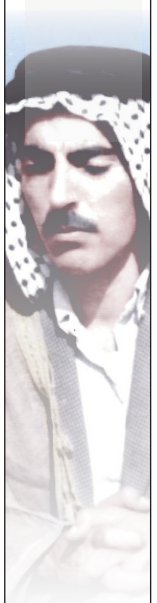

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

من الشباب معا في «طريق الشعب» وكان بيننا و بينه فارق في العمر، الا انه كان يميل الى هذه المجموعة من الشباب، وجدنا فيه اشياء كثيرة، عنفوان و اندفاع شبابي ومزاج ثائر ضد التقليد والجمود ولذلك كان يعيش أجواء الشباب الصاخبة و المشاكسة حتى ضمن السياقات العامة الموجودة في الجريدة آنذاك، وكان قريبا الينا ونحن ايضا، فالودّ والمحبة كنا نكنهما لهذه الشخصية المثيرة للإعجاب، فهو رجل يكتنز وعيا كاملا لدوره و مهمته وانتمائه الوطني والسياسي والحزبي والمهني /الحرفي. كان فريدا ومتميزا تماما في هذه المواصفات. عرفته بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ كإذاعي في احد البرامج الذي أثار انتباه المستمعين، وقبل ان يبدأ بكتابة عموده المعنون (بصراحة ابو كاطع)، لما يطرحه من قيم وأفكار مهمة وحساسة، مطلبية وضرورية وملحة، كان يمثل ضمير الشارع العراقي بفلاحيه وعماله ومثقفيه برغم استخدامه اللهجة الشعبية احيانا، لذلك استطاع ان يستقطب ويكسب جمهورا واسعا من المستمعين لحيوية مواضيعه وسخونتها، فهو ساخر وجاد في نفس الوقت اذ يجمع النقيضين معا، الا انه موضوعي ولم يؤلب و يشهر ويشتم ويهاجم، بل كان يضع يده على الجرح تماما، هذا الجرح الذي تلبس العراقيين طويلا.

انتقل الى المدينة بعد ان عاش تجربة الريف بكل تفاصيلها، تجربة حية منحته القدرة الهائلة ووفرت له هذا الخزين من الموروث الشعبي للحياة الريفية، تمكن من تسخيره بمضامينه الانسانية و الايجابية لموضوع ثقافي وحضاري، وبلغة سهلة وبسيطة. انتقل «ابو كاطع» الى العمل الصحفي في الكتابة بدءاً في مجلة» الثقافة الجديدة» واتذكر انه عندما دخل الى غرفة تحرير «الثقافة الجديدة» كان يرتدي زيه الريفي، عمل مديرا لتحرير مجلة «الثقافة الجديدة»، وكتب عمود (بصراحة ابو كاطع) وكان العمود ملاذا للقراء وكانت آنذاك تصدر بثماني صفحات، لكن هذه الجريدة بصفحاتها القليلة كانت غنية مكتنزة مدهشة مكتظة بالمعلومة والفكر والمادة والخبر، لذلك تقدمت بل فاقت كل الصحف التي تصدر في تلك المرحلة انتشاراً واقتناءً، ولعمود «ابو كاطع» سبب اساسي في هذا الانتشار، وكان جمهور واسع من القراء حريصا على ان يقرأ الجريدة من صفحتها التي فيها «بصراحة ابو كاطع»، فاستطاع ان يحقق رصيدا مهما بين القراء ليس في اوساط الفلاحين باعتباره يكتب بلغة ريفية انما المثقفون ايضا ، فالكل كان يتابع هذا العمود، وبذلك كانت لديه القدرة الكاملة على توظيف هذا الموروث الذي اختزنه في تحريك الوسط السياسي والثقافي، فعمل على كتابة هذا العمود بلغة بين الفصحى والشعبية، وتمكن بأداء ومهارة وكفاءة من خلق مدرسة خاصة بكتابة العمود الصحفي، وبطريقة لم نألفها سابقا ولم تتكرر ولايمكن حسب اعتقادي بهذه الخصوصية التي امتلكها ان تتكرر مرة اخرى، وكل ما كتب او حاول البعض تقليده كان تقليدا ممسوخا فاشلا.

غالبا ما كان يصعّد من سخونة الاجواء السياسية بصادمه المعلن مع (الحزب الحليف) الذي كان يرأس الحكم وقتها وكثيرا ما كانت كتاباته تتسبب باشكالات وتقاطعات مع السلطة الحاكمة.

كان «ابو كاطع «حريصا على ان ينشر مادته كما هي ولا يسمح بشطب شيء مما يكتب وكان يقبل بعدم نشر عموده لكنه لا يسمح ومن غير المقبول لديه ان يقوم احد زملائه في الجريدة بشطب شيء من عموده، وكان هناك كتّاب مهمّون في الجريدة ومنهم رشدي العامل ويوسف الصائغ وعدد كبير من الاسماء المهمة في الصحافة العراقية، لكنهم لم يمتلكوا هذه القدرة التي مكنته من ان يحظى بثقة و متابعة القراء. واستطاع ان يكتب رواية مهمة و معروفة وهي (رباعية ابو كاطع) واعتقد ان هذا تأسيس لأدب جديد تمكن منه في هذا الزمان، للاسف الشديد اقول انه اختار الغربة والمنفى القسري بعد معاناة مع ازلام النظام القمعي ورحل في مغتربه وهو لم يكمل تجربته الابداعية والروائية.

كان مشروع «ابو كاطع « كبيرا ومهما للمشهد الثقافي العراقي، ونحتاج الى دراسة كتاباته في مجال العمود الصحفي والرواية، والى الان لم تظهر أي دراسة بهذا الخصوص ربما كانت هناك كتابات هنا وهناك لكن الحاجة ماسة الى دراسة بحثية وأكاديمية تستطيع ان تمنهج ما قدمه، ليدرسها طلاب كلية الاعلام وقسم الصحافة.

هل تجرؤ كلية الإعلام على تدريس تجربة "أبو كاطع"؟

ناجح المعموري

عرفته في "طريق الشعب" خلال فترة السبعينيات وانا اتابع مواد المكتب الصحفي في بابل والفرات الاوسط، وكنت اخذ قسطا من الراحة في القسم الثقافي، لاتفرغ لقراءة القصص المرسلة الى ثقافية الطريق، حيث اجد الصديقين ا لعز يز ين ، المرحوم غانم الدباغ وفهد الاسدي قد فرغا من تقييم القصص وكنت متوافقا معهم في ملاحظاتهم حول صلاحيات النصوص ، لكن المرحوم (ابو كاطع) لم يكن ياخذ بالملاحظات فقط لاسباب سياسية ، وضوابط العلاقة مع (الحلفاء) واتذكر في يوم من الايام قدمت قصة لي اسمها [صباح الخير ايتها الغابة] حازت تزكية الصديقين، وعندما قرأها المرحوم (ابو كاطع) وضعها في جرار منضدته، ولحظة دخولي الى غرفته في يوم خميس، لأني كنت احضر اجتماع صفحة مرحباً يا اطفال مع العزيزين عدنان حسين والمرحوم مؤيد نعمة. استقبلني "ابو كاطع" ضاحكا وهو يقول : القصة جيدة وممتازة وعلى الرغم من المحاولة ا لتر ميز ية الواضحة، تظل القصة طافحة بالجنس، اعتذر عن نشرها ولم اقل له شيئا واكتفيت بالصمت. لكنه بادرني بضحكته المعهودة قائلا : لم يستطع الرمز التكتم على الاتصال الذي بين الفتاة والحصان، وهي مثيرة. والقصة محاولة لاعادة انتاج لوحة تشكيلية للفنانة سعاد العطار التي حاولت التمويه على اشجار الغابة التي تحولت كلها رموزاً ذكورية وفتاة وسط الغابة تمتطي حصاناً. تسلمت القصة وقدمتها للصديق (سامي محمد) الذي كان مشرفا على ثقافية" الفكر الجديد" ، وبعد اكثر من اسبوع سألته عن القصة فقال لي : تحفظ "ابو كاطع" على نشرها، تسلمت القصة مع تخطيط لها نفذه الاخ الفنان د. مجيد حميد وما زلت احتفظ بهما حتى الان.

عرفت مثلما عرف غيري من الذين عملوا في "طريق الشعب" والمكاتب الحزبية بان ما ينشره "ابو كاطع" في عموده المعروف (بصراحة "ابو كاطع") كان يثير من الاشكالات السياسية مع "الحلفاء" الذين كانوا يقرأون ما يكتب بدقة وبعدسات مكبرة وتحليل ما يقول بوصفه موقفا ضدهم. وكان يتوقف احيانا عن كتابة عموده المشهور جداً، لكنه يقدم افكاراً للفنان مؤيد نعمة يرسمها كاريكتيريا ويحدد له التعليق كذلك. ليس في بغداد فقط وانما في المحافظات ايضا. واقترح " ابو كاطع" كاريكتيرا (يتضمن برميل أزبال ممتلئا، تساقط منه الكثير على الرصيف واعتلت قطة سطح البرميل وقريبا منها، وقف رجل ضبط انفه بقراصة امساك الملابس على الحبال وكان التعليق :وصلت جيفته لأبو موزة). وبعد نشر الكاريكتير مع التعليق قامت الدنيا ولم تقعد.

تميزت شخصية المرحوم "ابو كاطع " الصحفية. بخصائص أسلوبية وفنية لم تعرفها حتى الان الصحافة العراقية، على الرغم من ظهور العمود الصحفي الساخر بين حين واخر لكن "ابو كاطع" تميز بإمكانات ، قادرة على تطويع الرأي الجمعي بلغة سهلة وبناء متماسك وتوظيف للغة العامية التي ميزته تماما حتى في رواياته. انه مكتشف المفردة العامية "النيرة" حسب مصطلح دانتي وظل-يخترق بها ومن خلالها جدران الدكتاتورية.

واعرف المئات من القراء والمثقفين يبدأون قراءة "طريق الشعب" ابتداءمن بصراحة "ابو كاطع" التي أسست نوعا من العمود الصحفي الذي دائما ما يتحول الى مقال من طراز فريد، وكنت اراه هادئاً وكثير المرح وهو يطلق تصريحاته الرمزية واقول مع نفسي : كيف يتحول هذا العملاق الهادئ والرصين الى مقاتل عبر لغته، وأية امكانات تمتع بها وانفرد عن غيره بخصائصه المميزة له. كان رحمه الله صوتاً مدوياً ومحرضاً واعتقد بان لمغادرته العراق اسبابها مختصرة بما كان يكتبه.

تحية الى شمران الياسري وخلف الدواح الصوت الشعبي للانسان العراقي، وهل تجرؤ كلية الاعلام تدريس هذه التجربة اكاديمياً؟.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

ابو كاطع- وتفرد روايته العملاقة

كريم السماوي

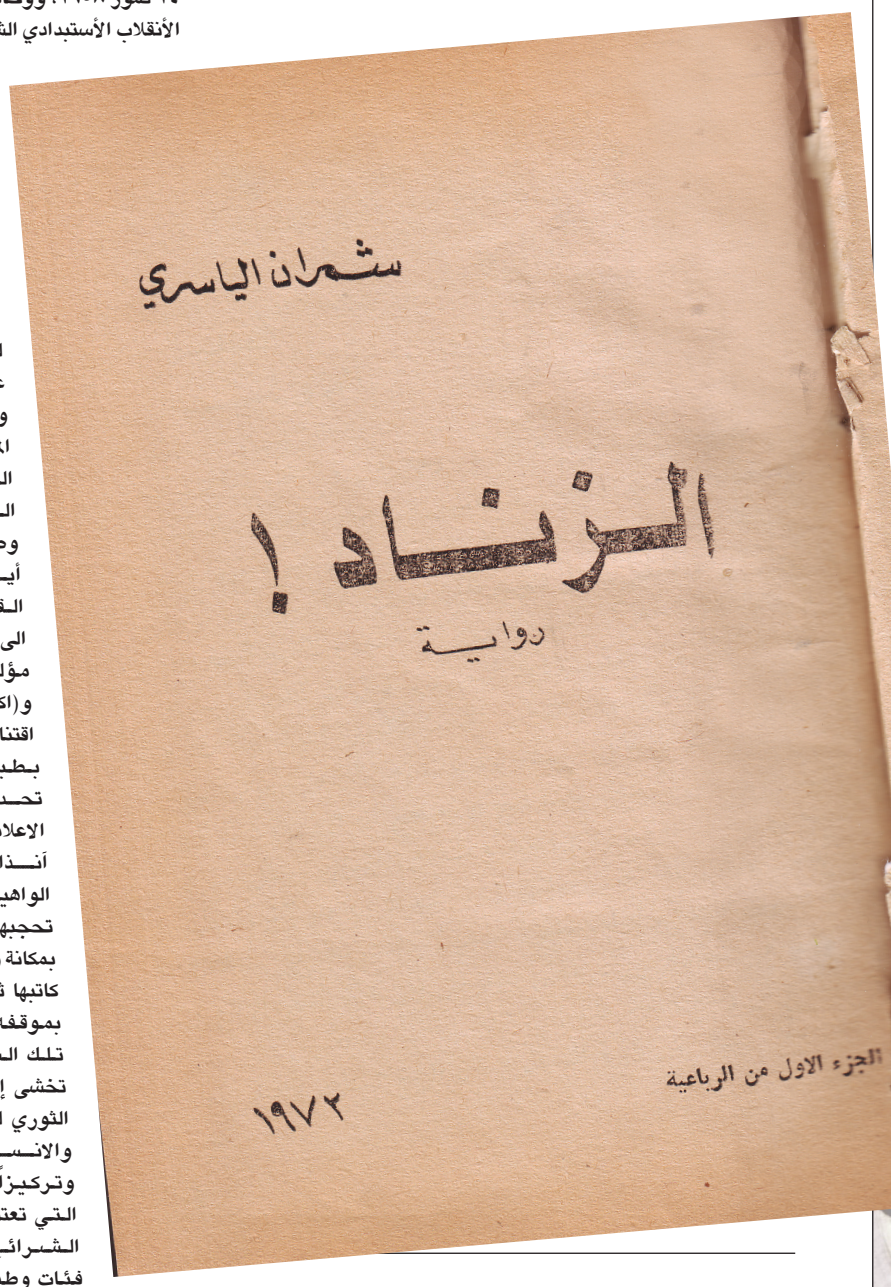

تعقيباً على إطراء تقديم الرواية (الرباعية الشمرانية) وما كتبه نجل المؤلف (إحسان شمران الياسري) في طبعتها الثانية، وقد تكفلت بها دار الرواد المزدهرة وكذلك المقتطفات التي شهد لها النقاد، تنم عن الحاجة الماسة لهذا النوع الريادي الذي انفرد به المؤلف (شمران الياسري –ابو كاطع-) شكلاً ومضموناً واستجلاءً واستنتاجاً عن طابع التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي انتابت مجتمعنا العراقي في الريف على وجه الخصوص.

فالكاتب ترك هذا الفضاء مفتوح الارجاء والأفاق. إذ لم يكن زمن كتابة هذه الرواية اواسط النصف الاول من العقد الستيني من القرن الماضي وما تلاها من سبعينياته لظهور هذه الرواية الرباعية الى الوجود العلني في تداول واقتناء النشر الثقافي، رغم تداعيات وارهاصات الحقب الدكتاتورية الحاكمة منذ الأنقلاب الذي اغتال ثورة العراق، الوطنية التحررية في ١٤ تموز ١٩٥٨، ووخامة غيوم سحب الأنقلاب الأستبدادي الشباطي الهمجي والمتوحش العنيف عام ١٩٦٣ بويلات الضغائن المبيتة والتآمرية وإرثه السيئ (...)، كل ذلك لم يثن كاتبها عن إصراره وهدفه في دأب المثابرة، ورغم الصعوبات التي اعترضت وصولها الى أيادي جمهور القراء، فبادروا الى التضامن مع مؤلفها المرموق، و(اكتتبوا) على اقتنائها قبيل البدء بطباعتها التي تحدت السلطات الاعلامية (الرسمية) آنذاك، واعذارها الواهية والهزيلة التي تحجبها عنهم! لمعرفتهم بمكانة وصدق والتزام كاتبها ثقافياً واخلاقياً بموقفه الثابت إزاء تلك السلطات التي تخشى إثارة النهوض الثوري للوعي الوطني والانساني، كثافة وتركيزاً على قضاياه التي تعتمر بها اذهان الشرائح المثقفة من فئات وطبقات مجتمعنا العراقي.. فالرواية، بهذا المعنى الهادف، ادت غرضها الذي سعى له المؤلف الراحل شمران الياسري –ابو كاطع- وإذ تكاد تلك الأجواء تنبئ عن عقلية السلطات المتخلفة والغاشمة في تعميم ثقافتها الشمولية (التوليتارية) والاستعلائية التي تستصغر شأن ومميزات الفئات الوسطى والمعدمة الكادحة من الطبقات الأجتماعية العراقية وروابطها الانسانية المعروفة التي تعزز علاقاتها التقليدية بحكم انماط عيشها وانتاجها للخيرات المادية العميقة.

تحتفظ الرواية ايضاً بالاسلوب الفني الفريد، الذي مهر طابعه الجمالي والأدبي شمران الياسري بأمتياز، وبعنصر التشويق لما يدعى بالواقعية الفنية لمتابعة القارئ أحداثها المترابطة في السرد والحبكة التي لا تفتقر الى البلاغة المرموزة او الملغزة في (الحسجة) الريفية التي ينتبه لها ويستوعبها القرويون في بيئتهم الجمعية، ولغة الواقع اليومي والحياتي، والمقرونة بالامثال الشعبية والبداهة الحكيمة بينهم في الأدب الشعبي والفولكلوري الذي يدل على اصالة التواصل الانساني بحذاقة وذكاء الثورية المباشرة دون ان يحتاج قائلها الى المجاز المتكلف. والأستعارة، كما يحتاجه في اللغة الأدبية، الفصحى والأكاديمية التي تستوحيها المدارس الأدبية الأخرى.

ان المقطوعات الشعرية التي ضمنها المؤلف باللغة القروية الدارجة (المحكية) والمتعارف عليها، أعطت للمجتمع القروي، فطريته السليمة في التعبير عن خلجات الأحاسيس والهموم المشتركة التي يجمع عليها ويتعارف بها القرويون لوحدهم في قرى الفرات الاوسط والجنوب العراقي.

ان شظف العيش والفاقة والملمات الوجدانية في العلاقات العاطفية هناك، يكتسب طابعه الروحي والأخلاقي عند القرويين البسطاء، وهذا عنصر مهم، وظفه الراحل شمران الياسري –ابو كاطع- وهو ابن بيئته الأجتماعية (القروية) ومركباتها في كل شخصية درامية، اعطاها الكاتب دوراً رئيسياً استثنائياً وليس ثانوياً. اما الأشخاص الثانويون فقد تكاملت بهم الرواية –الرباعية- في أحداثها الدراماتيكية.

فنحن كما سنرى في الجزء الاول من الرواية "الزناد.." طبيعة العلاقات المتضادة المصالح العشائرية، وبناء قيمها القبلية الموروثة في النزاعات العدوانية على الأرض تارة وفي الموالاة والتحالف تارة أخرى درءاً لقانون (الثأر العشائري) والاعراف التقليدية السلبية التي يقررها نفوذ العشيرة الأقوى في أغلب الأحيان، وكذلك عبر بطون وافخاذ العشيرة المتفرعة الى اسر وعوائل.

(سعدون ابن مهلهل) شيخ عشائري، فرض امتيازه بحصة الخمس من عوائد المحاصيل الزراعية واسلاب غنائم النهب والغزو.. وما ان يستدعيه الحاكم الانكليزي في العاصمة.. ثم يمنحه رشوة ضخمة (١٠٠٠) ألف روبية هندية. ينأى عن أتباعه واقربائه من عشيرته التي يمثل وجاهتها لدى الحكام المحليين، فينحاز مع اعدائها متوافقاً مع مقتضيات مصلحته الشخصية التي استجدت، دون اهتمامه السابق بالمصالح الجماعية للعشيرة!

الرباعية: (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ، فلوس احميد) ورمزياتها الواقعية

في الجزء الاول استعارات رمزية تفصح عن "الزناد.." آلة قدح وأداة إشتعال (اندلاع) لهيب شرارتها بعد ان تتقيد، تندلع ألسنة واجنحة النار التي قد يضيق او يتسع محيطها في المعنى الذهني العام، المتداول والمعروف.. لكنها، ليست كذلك في الرواية كما اظن. فالآلة هذه، قد استعيض بها عن "الصلبوخ الحجري" الذي يؤدي ذات المهمة، ولو بزمن ابطأ من عجلة الزناد الذي أثار انتشاره وقتذاك، ذهول وفضول وإعجاب القرويين، فأعتبروه منذ حصولهم على ابتكاره (العجيب) نوعا من الترف الذي يحتفظ به (ارستقراطيتهم) العشائريون ومشايخهم الاثرياء. ومن هذه الفكرة تولدت خديعة سعدون بن مهلهل ومفاجأته، القريبة من مفاجأة كروستوفر كولمبس –مكتشف القارة الأمريكية- وخديعته للهنود الحمر الذين كانوا يجهلون سلق بيض الطيور ولا يكترثون لوفرته المهملة بينهم، قدمه طعاماً لهم لاغرائهم بعد ان كادت تنفذ اطلاقات بارود اسطوله في رحلته الاستكشافية للقارة الجديدة، وتعامله مع سكانها الأصليين الذين كانوا يطاردون رتله (الابيض) بالسهام والرماح والحجارة الجارحة السمجة.. بخدع الشيخ العشائري اصحابه القرويين لينال رضاهم ومودتهم الدائمة عن كرم الشيخ سعدون.. وكان قد أغرى الزناد قبول وتاييد ابن عشيرته القريب منه (خلف..) في الوقت الذي كان لا مجال فيه للملكية الخاصة في الأرض المزروعة الا بقدر محاصصة (الديمات) –أي المقاطعات الزراعية في حصصها المتوارثة عن الملكية الابوية لافراد العشيرة، حسب العوائل التي تستثمرها، بنوع من الاكتفاء الذاتي للأقتصاد الطبيعي.

"الديم.." او "الديمات" وما تنتجه الأرض من الزروع الموسمية التي يعتمد ارواؤها على المطر في كثافة (الغلة) في كثافة الانتاج ومحصوله الوافر، كالتي يعتمد إرواؤها على السيح –سواقي مياه الأنهر والجداول والقنوات، الا مؤخراً.. بعد احتلال الانكليز العراق، وهناك حادثة شهيرة سبقت اندلاع ثورة العشرين الخالدة، وهي وصول الجنرال الانكليزي –طاوزند- للكوت القريبة من مدينة الحي ومقتله الذي لم يشر إليه المؤلف بل أشار الى أحداث ثورة العشرين في الفرات الأوسط!

فالانكليز وحكامهم المحليون وموظفوهم والمستشارون الكبار، أحتلوا وظائف الحكام الاتراك –العثمانيين- اولئك الذين كانوا (يجبون) يستحصلون الضرائب المتصاعدة دائماً من السكان، على عوائد الارض من الزرع والرعي سواء أجدبت او أخصبت تلك المقاطعات،

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

فذاك لايعنيهم، الا الثراء الفاحش من اقنان الأرض ومالكي النماء والمرعى في أي حين. وبالتالي فهم (الاتراك) غير مسؤولين عن تصحر الاراضي القاحلة، او فيضان الأنهر، واغراق القرى والممتلكات للمجاميع البشرية في أنتمائها العشائري، ونخبوياتها العائلية من البطون والأفخاذ.

ولما انقلبت موازين الحكم التركي لصالح رجحان كفة الحكم الانكليزي المباشر للبلاد، كان لقانون العشائر وتوزيع الأرض وتسوية ملكيتها على ما خلفه الاتراك من قوانين التملك للاراضي الممنوحة بالطابو للأفراد والاراضي الممنوحة (باللزمة) التابعة للدولة التي اصطلح على تسميتها فيما بعد بالاراضي الأميرية (...) فقد كرس هذا القانون الملكية الخاصة غير المحدودة في الرقعة الجغرافية التي يستثمرها الزعماء العشائريون، اعتماداً على نفوذهم الأبوي كسلطة محلية (ذاتية) تنوب عن سلطة الدولة، في مجتمعهم العشائري فاعطى السلطة (حقاً قانونياً) وتشريعياً مقابل شراء ذلك النفوذ الابوي المتوارث لاولئك الزعماء لقاء خدمتهم المصالح البريطانية في سيطرتها الحاكمة على التوازن الأجتماعي، وسكونية ما يقلق الانكليز من اعتراضات اهالي البلاد ومنهم عشائر العراق على وجه الخصوص. وبعد ان لمس الانكليز الخسارات والخذلان في اندلاع الثورة الشعبية والتأريخية في ٣٠ حزيران عام ١٩٢٠ فكلفتهم ما أثقل كواهلهم من نتائج الفشل الذريع في كسب ود سكان المدن والأرياف العراقية.

واذا كانت (مكننة الريف العراقي) بالمضخة في شكلها ما بعد البدائي، لسقي الاراضي الزراعية، تنوب عن النواعير التي نصبها المزارعون الاوائل على مقربة من الأنهر الرئيسية والفرعية ومصبات المياه الجوفية والآبار لجملة اغراض والاهم منها تنظيم سقي السيح وتقنيته الاروائية، فأنها (المضخة) اكتسحت الملكيات الصغيرة لاراضي الديم وقد كان الزعيم العشائري وافراد مشيخته لهم السلطة المطلقة كرئيس اقنان في حالة ولائه السابق للسلطة العثمانية (العائدة) التي كانت تبتزه وتبتزهم.. فأن ولاءه للحكم الانكليزي وقوانينه التي منحت ذلك الشيخ سلطة سياسية وتشريعية (قانونية) بالاضافة الى نفوذه الابوي على فلاحي وابناء عشيرته، فزادت سلطاته ومركزيتها ان ينوب عن الحاكم الأجنبي الذي يجهل العلاقات العشائرية السائدة وفق الفهم الدقيق لحالاتها فذلك الحاكم لا يملك اليد الطولى عليهم كذراع الزعيم العشائري و(الشيخ) التي كفه تصفعهم باستعلاء الكبرياء السلطوي، فيلثمونها بذلة وخنوع وخضوع لسلطته العليا في العشيرة.

أحسب ان الكاتب الراحل عميق الغور في فهمه لطبيعة القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، كقانون عام، يفرز خصوصية الافراد والجماعات في الارياف والمدن كدراسة مادية تأريخية اعتمد فيها فهمه واستيعابه لأطروحة فريدريك انجلس وموضوعته في كتابه الثمين جدا (العائلة والدولة والملكية الخاصة) في تحليلاته الغنية والجديرة بالبحث حول التطور الاجتماعي ببنائيه –الفوقي والتحتي– كعلاقة متبادلة ومتضادة بين الدولة والمجتمع وبلا أنفكاك من ظواهر الصراع الطبقي واستغلال الملكية الخاصة للانسان.

أدخل شمران الياسري –ابو كاطع– في روايته (الزناد) ليس أقحاماً لاسلوبه الادبي، وانما اذكاءً لفكرة اغراء مخادعة سعدون ابن مهلهل، "خلفاً" الصديق والقريب منه في العمومة العشائرية، فيستلب او يغتصب ابن مهلهل (ديمة الارض) التي يستثمرها خلف..!

"الزناد" –الهدية الرمزية الذي يباع في سوق المدينة مهد لتحالف جديد بين الاعداء القبليين في الأمس أي بين عشيرتي ابن مهلهل وابن طرفة.. وهما كذلك أغراهما أيضاً الحاكم الأنكليزي، وغيرهم من شيوخ وزعماء عشائر العرب والكرد في العراق، عندما قدم لهم المنح والرشاوى والأمتيازات والتسهيلات في ارواء اراضي فلاحي عشيرتيهما: شريطة تنصيب المضخات، كأنقلاب مفاجئ لعلاقات الانتاج السائدة والتقليدية، يتناقش مع مصالح القوى المنتجة. فزج ذلك الأنقلاب تلك العلاقات مجدداً بالصراعات الطبقية التي استحدثت بواكيرها في المجتمع الريفي (العشائري) منذ ذهاب سعدون ابن مهلهل برفقة صلال بن طرفة للكوت ثم الى بغداد، وكانا قد استعارا ثياباً واخفافاً (نعلاً) من الأقربين لهما ذهبا معا لمقابلة الحاكم الانكليزي، ورجعا منه محملين باثقال الهدايا والعطايا الرخيصة التي وزعاها على ذويهما واصحابهما. فسعدون بن مهلهل مثلاً يقدم الزناد العجيب لخلف الذي دبر من (احميد ابو لبينة) الراعي البخيل عشر روبيات هندية تكفله من غائلة الحاجة والعوز في سفره الى متصرفية الكوت.

في الجزء الثاني من الرباعية الشمرانية المعنون (بلابوش دنيا) سلط الكاتب ابو كاكع الضوء على طبيعة التناقض بين الفرز والاستقطاب الطبقي بين اقطاب الزعامة العائلية والمشيخة الفردية الابوية وطغيانها على الجماعة العشائرية وافرادها كمحور لصراع تناحري في علاقات الانتاج وتضادها بين القوى المنتجة. وفيه نوع من الانسجام غير العفوي، أي المصلحي والنفعي لطبيعة المصاهرات والتزاوج العشائري في تمتين الانتساب القبائلي والقرابي، الذي أكد عليه فريدريك إنجلس في بحثه القيم حول (العائلة والدولة والملكية الخاصة) حتى يكاد استنتاجنا جازماً ومؤكداً لأهمية العامل الاقتصادي والطبقي بدوافعه المادية والمعنوية وكذلك الروحية الاعتقادية (الدينية) في التعاقدات الاجتماعية وعلاقاتها المتوارثة، وهكذا، ما تزال ملامح هذه العلاقات بارزة في المجتمعات الريفية والمدينية المنحدرة من الريف رغم اختلافات نمط الحياة الاجتماعية، الجزئية او النسبية بينها.

الرباعية ومنذ (الزناد) ترصد الاجواء الثقافية ومجمل العادات التقليدية لروابط المجتمع القروي فأرتباط هذا المجتمع بالارض كأداة ووسيلة انتاج في الاقتصاد الطبيعي الذي تحرر من بدائيته الاولية بعد الاستقرار الزراعي والمهني.. لكن القيم والمعايير والأعراف القبلية والعشائرية لم تحرر عقلية هذا المجتمع. والدولة العراقية (الملكية) الوليدة لم تحرر المجتمع العراقي منها، وانما سعت الى تخلفها الارستقراطي وترف النخب الحاكمة الوصولية من الزعامات والوجاهات العشائرية المعتمدة في موالاتها للحكومات المتعاقبة.

ان تجاور أرياف المدن العراقية كان له اثر إيجابي في تمتين الروابط الاجتماعية وفي تطور الوعي الوطني التحرري بأمتداد الانتماء السياسي (الحزبي) المعارض فأنتقال ناصر بن حسين للعمل في سدة الكوت، وانطباعات عبيدالمنتز بعد سجنه سنوات اثر اقترافه جريمة قتل حرضه عليها شيخ عشيرته لقتل أحد ابناء رموز العشيرة.. ميز اوائل الرجال (المدنيين) المسجونين الذين رفضوا الانصياع لأوامر مدير سجن الكوت في اعمال السخرة والأحكام الشاقة المؤبدة!

اولئك الذين ميزهم عبيدالمنتز، على قلتهم –نالوا احترام واعجاب السجناء الآخرين لحزبية اولئك القلة الذين يناضلون من أجل العدل والمساواة والحرية، وينبذون التخلف والفقر والاذلال واستغلال الانسان للانسان. اما ناصر بن حسين عامل سدة الكوت الذي اعجب به المهندس المشرف على العمل فقد صحبه معه الى كركوك للعمل في آبار النفط هناك، فقد تبلور عند ناصر بن حسين الوعي الوطني الطبقي الثوري والثقافي (السري) المتحزب والمنظم، وقد اكتسب هناك مهابة العمل النقابي العمالي في مساهمته باضرابات كاورباغي الشهيرة أواسط اربعينيات القرن الماضي، وبعد استشهاد هذا المناضل في بطولة المعركة الطبقية الفاصلة مع الحكومة التي تساند شركة النفط الانكليزية ضد العمال المضربين.. وبعد ذلك المخاض الذي اقترفته الحكومة الجائرة.. انتقلت عائلة ناصر بن حسين الى العيش في بغداد تحت كنف ورعاية اخيه المناضل (ملا نعمة) للروح الأخير في انبلاج فجر ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨. ذلك الروح المتزامن بامتداد وسعة التنظيم المتحزب في عموم المدن العراقية وأطرافها ونواحيها وقراها. زعزع ثقة الفلاحين بالقيادات العشائرية والاقطاعية الموالية لنظام الحكم الملكي المباد.. وفي العهد الجمهوري وعلنية تأسيس الاتحادات والجمعيات والروابط المهنية والأجتماعية وجد الصلة المباشرة وغير المباشرة في تهيؤ الشعب العراقي لمناصرة وتأييد منجزات ثورة العهد الجمهوري الجديد.. فكان بمثابة اعادة اصطفاف وفرز اجتماعي وطبقي لقوى النضال التحرري من ربقة التسلط الاقطاعي المذل.

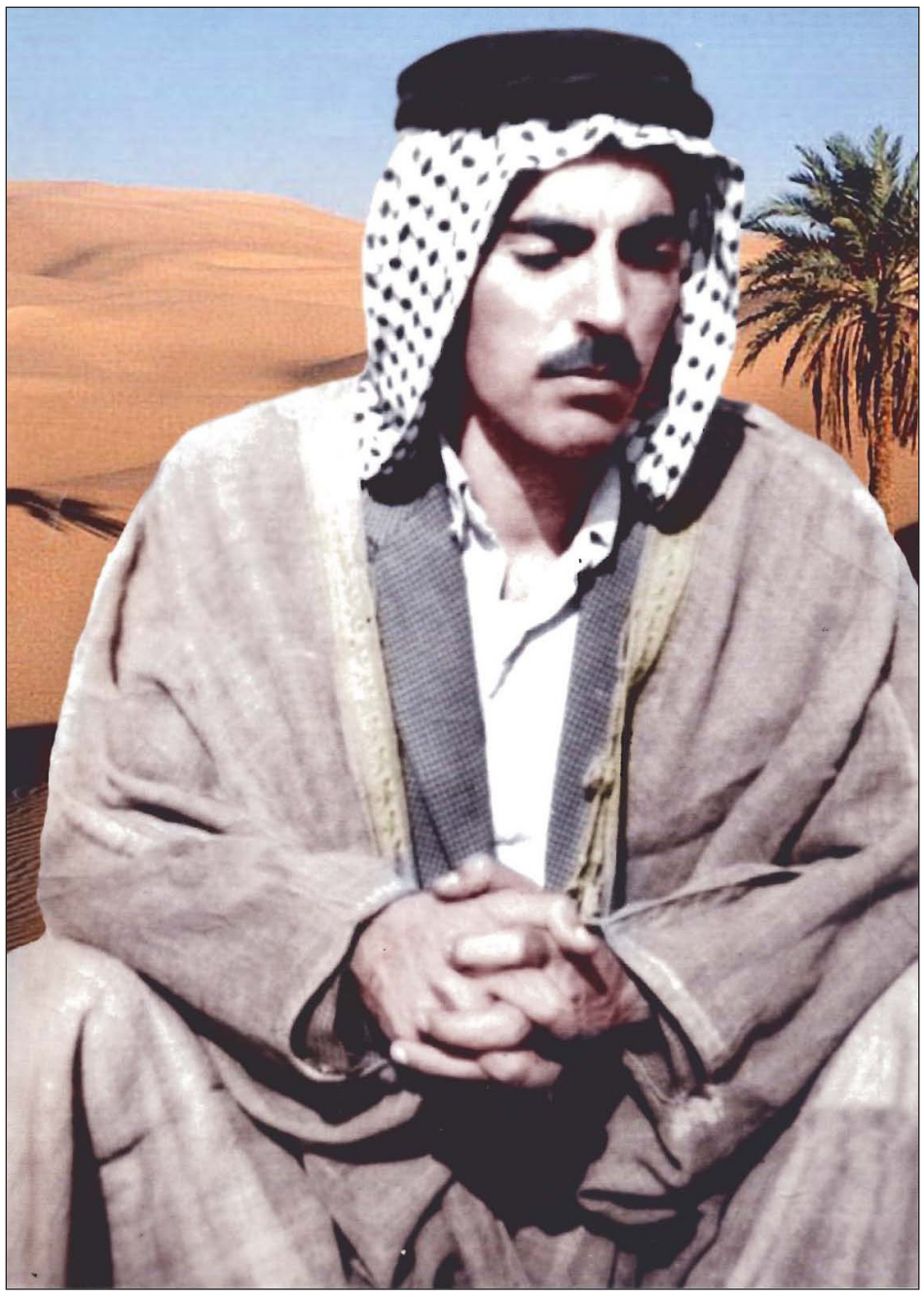

ان الكاتب الراحل عميق الغور في فهمه لطبيعة القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، كقانون عام، يفرز خصوصية الافراد والجماعات في الارياف والمدن كدراسة مادية تأريخية اعتمد فيها فهمه واستيعابه لأطروحة فريدريك انجلس وموضوعته في كتابه الثمين جدا (العائلة والدولة والملكية الخاصة) في تحليلاته الغنية والجديرة بالبحث حول التطور الاجتماعي.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

إلى والدي

صورة تجمع شمران الياسري مع والده السيد يوسف واخيه جاسم

يوم ١٩٨١/٨/١٧ توفي المرحوم شمران الياسري/ أبوكاطع في حادث سير وهو في الطريق من جيكوسلوفاكيا إلى هنغاريا لزيارة شقيقنا الأكبر المرحوم (جبران) الذي توفي هو الآخر في هنغاريا نهاية عام ٢٠٠١. وانتهت حياة المناضل العراقي (شمران الياسري)، أسطورة العمود الصحفي البارز الذي أسسه بصراحته المشهورة.. ومن سوء الحظ أن يُتوفى خارج العراق، ويكون في العراق نظام لا رحمة في قلبه، فيقرر أصدقاؤه دفنه خارج الوطن، في لبنان في مقبرة الشهداء الفلسطينيين.. ولم يشهد أهله وزوجته وأولاده تغسيله ودفنه، مع إن أصدقاءه الذين جاءوا مع جنازته من (براغ) إلى بيروت متخفين بأسماء وهمية، تولوا تلك المهمة .. وهكذا رقد ذلك الجسد النحيل المترف الأبيض في بيروت، في ضاحيتها يترقب بوابة المقبرة عسى أن يطل عليها أهله أو أصدقاؤه..

إحسان شمران الياسري

واليوم يستذكر العراقيون مناضلا مميزا مثل (أبوكاطع)، والذي كوّن شخصيته من بين أكواخ الطين في أقاصي ريف الحي، وتتلمذ على يد والدته بمدارس القرآن الكريم والكتاتيب.. ثم دخل بغداد مثقفا واعدا، يشق طريقه في الصحافة والأدب، وقبل ذلك في النضال..

ومع إن لكل مثقف قصة، فان قصة (أبوكاطع) المميزة هي مسيرة حياته بالكامل، والتي بدأت خلال العقد الثالث من القرن الماضي، نحو عام ١٩٢٧ في عائلة عريقة ومحافظة، عائلة السيد إبراهيم الياسري، عمه، ووالد زوجته لاحقا.. وهو عميد الأسرة الياسرية وأحد الشخصيات الكبيرة في وسط العراق.

يقول المرحوم أبوكاطع انه بدأ الكتابة في الصحف وهو في الريف، ولم يكن قد التحق بعد بمسيرة الشيوعيين الذين (كسروا رقبته) على حد قوله.. فقد بدأ يكتب اشياءا عامة، سب خلالها الغرب والشرق!. ثم التحق مع الشيوعيين في الطريق الوعر مطلع خمسينيات القرن الماضي (وقبل أن يبصر النور داعيكم!!)..

وعندما فتحت وزارة التربية مدرسة حمورابي الابتدائية في مشروع الدجيلة، اخذ يتردد على المعلمين فيها وعقد معهم صداقات واتفاقيات لأخذ محاضرات في اللغة الإنكليزية وبعض المفردات الأخرى.. واستطاع أن يجتاز امتحانات المراحل الدراسية بسهولة.. وقد كان الأستاذ (بهجت ياسين) والأستاذ (حسين الربيعي) أطال الله عمريهما ومتعنا بوجودهما اللذين كانا من بين، هم أساتذة المرحوم الوالد في خمسينيات القرن الماضي..

وبعد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ انتقلنا إلى بغداد حيث كانت الأبواب أوسع لصاحب الذكرى في الصحافة والإذاعة، وبدأت إذاعة برنامجه المشهور(أحجيها بصراحة)، والذي أسس كما اعتقد، ويعتقد عدد آخر من الناس، للإعلام والأدب النابع من الريف.. فقد تحدث (أبوكاطع) في ارفع المنابر الإعلامية بلغة الريف المؤثرة، والتي لا تبتعد كثيرا عن لغة الشعب في كل مكان.. فاجتذب ملايين المستمعين لبرنامجه.. يقول الأستاذ (فلك الدين كاكه يي)، وزير الثقافة في كوردستان، إن الكورد كانوا ينتظرون إذاعة البرنامج كما ينتظرها فلاحو الجنوب والوسط، وينتظرها أهل المدينة..

بمعنى إن مثقفا في الثلاثين من عمره لمع في العراق في المرحلة التي أنتجت خيرة مثقفي العراق وشعرائه وحملة لواء الفكر.. فعاصر الجواهري والبياتي ومن هم بوزنهما.. وقد كانت نشرة صحفيي العراق تبدأ بالجواهري الكبير، ثم بالأستاذ جعفر قاسم حمودي، ثم شمران الياسري بالتسلسل. وكانت اكبر مساهمات المرحوم أبوكاطع في فترة الجمهورية الأولى هي جهوده في التبشير لقرارات الإصلاح الزراعي، وإجراءات تفتيت الملكية الزراعية، التي طالت كبار الإقطاعيين.. ولكم أن تتصوروا حجم الإحراج الذي وقع فيه السيد (إبراهيم الياسري) عندما اعتقد اقطاعيو الكوت إن قرارات الإصلاح الزراعي وإجراءات المصادرة للأراضي هي من صنع السيد (شمران)، ومن ورائه عمه السيد (إبراهيم).. خصوصا وان السيد إبراهيم كان من صغار الإقطاعيين الذين طالتهم الإجراءات..

ولقد واجه أبوكاطع، مثلما واجه الشيوعيون محنة العلاقة مع الزعيم الراحل (عبد الكريم قاسم) رحمه الله.. فالمرحوم قاسم كان محبوبا من العراقيين.. وكان الشيوعيون هم حراس النظام والذائدين عنه.. ولكن الزعيم كان (يمون) كثيرا عليهم، فيزج هذا في السجن، ويسمح للأمن بملاحقتهم، فدفعوا ثمنا كبيرا من حبهم وولائهم له.. وهكذا ألقي المرحوم أبوكاطع مع عشرات المثقفين العراقيين في السجون بسبب الوثيقة التي وقعوها لنصرة القضية الكوردية.. واضطررنا للعودة إلى الريف بانتظار إطلاق سراحه. وقد ظل في السجن نحو سنة، وأطلق سراحه قبل انقلاب شباط ١٩٦٣ الأسود بشهرين. وواجه مجددا محنة التصرف إزاء الاحداث الدرامية التي وقعت في البلاد صبيحة ذلك اليوم الرمضاني المرعب. فاختبأ في بيوت

لقد واجه أبوكاطع، مثلما واجه الشيوعيون محنة العلاقة مع الزعيم الراحل (عبد الكريم قاسم) رحمه الله.. فالمرحوم قاسم كان محبوبا من العراقيين.. وكان الشيوعيون هم حراس النظام والذائدين عنه.. ولكن الزعيم كان (يمون) كثيرا عليهم، فيزج هذا في السجن، ويسمح للأمن بملاحقتهم، فدفعوا ثمنا كبيرا من حبهم وولائهم له

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

أعمامي في بغداد نحو أربعة أشهر، ثم نقل إلى ريف الكوت من قبل سائق مغامر سلك طرقا عجيبة لإيصاله الى هناك.

وفي مطلع شباط من هذا العام، أتيحت لي فرصة لزيارة بيروت، تلك المدينة التي لا تعرف بحرها من جبلها من ضاحيتها..

وأول ما فكرت به وأنا أضع قدمي في مطار رفيق الحريري الدولي هي المقبرة، التي تحتضن بثقة وصمت ذلك الجسد النحيل لصاحب الشخصية القوية التي أفزعت صراحتها ذهنية الرقيب في القرن الماضي. وبعد بحث غير طويل وصلت إليها، ليتحقق الحلم بعد ربع قرن من انتظارنا وغربة الجسد.. وبعد ربع قرن من الشوق إلى الوالد والصديق والمعلم. لقد وصلتها تحت المطر.. لم تكن مقبرة.. كانت حديقة أو متنزها، غمرته أزهار الربيع البرية قبل أن يطل الربيع..

كان الضريح في نهاية المقبرة، بين حشد الشهداء، يجمعهم صمت الشهادة المهيب، ووقار الموت.

قلت: هذا أبي. كانت قطعة الحجر التي تغطي قبره تماثل كل القطع التي تغطي قبور رفاقه الشهداء: (ضريح الشهيد شمران الياسري.. مواليد..... استشهد ١٩٨١)..

وتركوا تأريخ ميلاده فارغا.. ونزلت الدموع بين ثنايا الكبرياء والتكبر.. لم ارغب البكاء، ولم يسعفني بالأحرى. فهذا موقف فريد لرجل فريد.. والبكاء يضيع فرصة القوة التي يمكن أن ندعيها في لقاء ربما لن يتكرر..

ولقد شغلتني بهجة اللقاء على مرارته، من التفكير به ميتا.. بل تصورته حاضرا يجلس على مكتبه، يدخن (البايب)، ويكتب عموده اليومي، ويدندن بعض الكلمات أو المقاطع غير المكتملة لإحدى الأغنيات. وشغلتني أزهار الربيع الفاتنة، وجمال المكان، عن التفكير بالحزن الذي ينتاب الأحبة وهم يقفون أمام الأضرحة الغالية. ولما انتهيت من قراءة سورة الفاتحة المباركة عشرات المرات بأسماء أهلي وأصحابي الذين استودعوني أمانة قراءتها في حضرة ضريحه، وقفت ابكي بعد أن شبعت من استيعاب المكان، واستوعبت حقيقة موته أمام قبره الذي غمرته أزهار الربيع..

ومع إنني رأيت هذا، فقد رأيت شيئا آخرا.. إن مساحة المقبرة محدودة، وقد بدأ (الدافنون) يزيحون بعض القبور التي لا يراجع أهلها، ويدفنون محلها موتى جددا..

وقد أفزعتني هذه اللقطة المخيفة من مصير الضريح الغالي للمرحوم (أبوكاطع).. وفكرت اول مرة في نقله إلى العراق، بعد أن اعتبرنا إن دفنه في لبنان هو جزء من المصير الذي كتبه له الباري عز وجل، ولم نفكر في نقل الجثمان إلا عند هذه الظروف. ولأن أبا كاطع هو جزء من موروث الشعب العراقي ومصدر فخره، فقد نفكر بنقل الجثمان إلى العراق واستحصال الموافقات الأصولية. خصوصا بعد أن يستقر الوضع في لبنان الجريح.

السلام عليك أبى.. مع إنني لا ادري إن كانت التحايا تصل إلى الراحلين، وتعّبر عن مشاعرنا نحن الأحياء المنتظرين رحيلنا الأبدي..

منذ غادرت بلادك عام ١٩٧٦، ثم موتك المفجع عام ١٩٨١ ونحن نعيش في عبق أنفاسك في هذه الحياة.. ونفخر (بخوف) بأنك أبونا، ويتصرف الآخرون معنا بما تسمح به ظروفهم من الاحترام والتقدير والمحبة، فيما يتصرف معنا أناس آخرون بالعداوة التي تستحقها مواقفك العنيدة، وشجاعتك التي أوقدت عندهم قلقا لم يهدأ حتى بعد موتك..

ومع إننا، ككل اليتامى، افتقدنا وجودك بيننا، فانك كنت حاضرا بما شيّد قلمك وفكرك وفنّك الرائع.. فكان اسمك وتراثك عزاءا بالغا لنا.. وكان ذلك بكل المعاني، فخرا موصولا حتى في مواقفنا عند أعدائك..

وقد وضع اسمك، وهيبة فكرك، علينا التزام التحّصن بالصدق والنزاهة ومحبة البلد وناسه، وبصنع المعروف حتى مع من لا يستحقون..

كنا نراقب صورتك شابا، وصورتك في المؤتمرات، ومع أصدقائك.. ونقول انك حي في هذا الاحترام الذي يحتضن تأريخك المضيء، عبر حياتك التي انتهت بعجالة – ويا للأسف –..

وبعد سقوط الحكم البعثي، كنت لنا جسرا لتقدير الآخرين وحبهم. فقد جاء المحرومون من المنافي يسألون عن رفاقهم وعن أولاد رفاقهم.. وكنا إذا التقينا بعض وجوه العهد الجديد ومناضليه، ممن أتعبهم الحرمان والعمل السري، كانت إشراقة كبيرة ترتسم على وجوههم وهم يقولون بمودة بالغة:

– يا هله بريحة (أبوكاطع).. وكان بعضهم يفخر بلقائنا..

وقد فتحت لنا صحف البلاد أبوابها، ليس لأننا صحفيون (كما ندّعي)، بل لأنك كنت صحفيا عجيبا، وكان زملاؤك ورفاقك في المهنة الراقية يقدّمون الاحترام إليك فينا.

واكتشفنا انك اكبر وارفع مما كنا نعتقد.. فلقد كنت ابنا للعراق كله، وليس لفكرة واحدة أو حزب واحد.. فإذا مررنا بمحنة، أو عبّرنا عن حاجة ولو بالإشارة، وجدنا أهلنا في مؤسسات الدولة وفي الأحزاب، والصحافة، يحملون الخناجر للدفاع عن اسمك.

سلام لأسمك بين شقوق الأرض التي غادرتها عطشان لثنايا ضفاف دجلة، ومرابع صباك في ريف الحي، وفي ذاكرة أصدقائك العرب والكورد والمسيحيين.. وسلام لأنفاسك التي ما زالت في مكتبتك العزيزة.. وبين أربطة العنق التي تحتفظ بها أمي في الحقيبة (الدبلوماسية)..

وبين الناس الذين لا نعرفهم ولكنهم يعرفونك ويعرفوننا.. فخلال الإعداد للانتخابات السابقة، كانت إحدى الفضائيات تتلقى مكالمات هاتفية من المواطنين عن الانتخابات، فتحدث السيد (أمين يونس) من دهوك يدعو أهل البصرة للتصويت إلى قائمة اتحاد الشعب هكذا: (أيها الأخوة، أدعوكم للتصويت لقائمة اتحاد الشعب، وراح يتحدث عن مزايا تلك القائمة وعلاقة مبادئها بالناس. ثم قال: إن روح المرحوم شمران الياسري تدعوكم للمشاركة.. تذكروا أبا كاطع وخلف الدواح وناصر بن حسين).. وقد شعرت بالامتنان والاعتزاز لان أبناء شعبك لم ينسوا سحر قلمك وهو ينثر الصراحة والسعادة كما يُنثر الهيل فوق رؤوس العرسان، وكما غنت البصرة مواويلها عند مطالع المشاحيف وهي تمخر عباب ماء الشط الغاضبة.. وها هو رجل من دهوك، تلك المدينة التي تحلم بين صخور الجبال وبين ثنايا الشمس المغرورة، يستذكر وجه شمران وقلبه وقلمه وفكره، ويضغطها كلها في كلمات ممتلئة بحب العراق وأهل البصرة و أبي كاطع..

وها هم رفاقك أدباء العراق ومثقفوه يمنحوك درع المتنبي، ذلك الشاعر الهائل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، ثم مات غريبا في مدينة (النعمانية)، كما دفنت غريبا في (بيروت) بين الشهداء.. وها هي صحف بلادك تفتح لذكراك ببالغ الاحترام، كل الفرص ليستذكرك جيل ضاع بين المآسي والنسيان وبين الحروب..

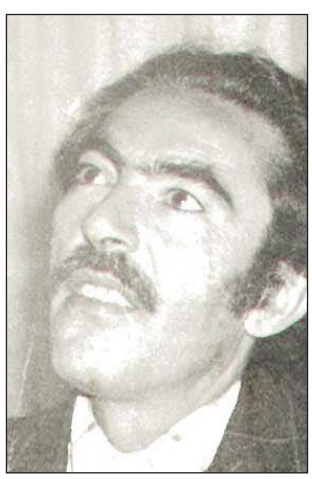

سلام لأسمك بين شقوق الأرض التي غادرتها عطشان لثنايا ضفاف دجلة، ومرابع صباك في ريف الحي، وفي ذاكرة أصدقائك العرب والكورد والمسيحيين.. وسلام لأنفاسك التي ما زالت في مكتبتك العزيزة.. وبين أربطة العنق التي تحتفظ بها أمي في الحقيبة (الدبلوماسية)..

من وخزات "ابوكَاطع"

ناصر حسين

في أواسط سبعينيات القرن الماضي أصدرت الحكومة قانوناً أسمته قانون «رعاية ذوي الكفاءات» وفي ضوئه وجهت الدعوة لأصحاب الكفاءات للعودة إلى وطنهم وخدمة العلم والبلد. إلا إن تلك الدعوات لم تلق آذانا صاغية إلا من عدد قليل جداً من العقول المهاجرة، عادوا إلى وطنهم ففوجئوا بان اللوحة التي رسمت لهم عن بلدهم كانت مشوهة وبعيدة عما يدور على ارض الواقع، فحزم البعض منهم حقائبه وغادروا إلى ديار الغربة مرة أخرى.

كان ذلك موضع نقاش في ندوات عقدت لهذا الغرض وعلى صفحات الصحف المحلية التي وصل الأمر ببعضها –جريدة الثورة مثلاً– إذ دبجت المقالات التي تطعن بوطنيتهم وإخلاصهم لشعبهم.

كان ذلك موضع جلسة حوارية بين (ابوكَاطع) وخلف الدواح الذي ذكر لـ(ابوكَاطع) قصة فرس السادة التي كلفوا احد المقطوعة بهم سبل العيش لرعايتها مقابل اجر زهيد. إلا إن حصاناً غير مؤصّل والذي يسمى في الريف «كديش» تسبب في حرمان ذلك الشاب من عمله ذاك، واضطر لمغادرة منطقته إلى جهة مجهولة وانقطعت أخباره حتى التقى بعد سنين مع «خلف الدواح» في شارع الرشيد في بغداد وهو يرتدي أجمل الملابس وأبهاها ويقود بنفسه سيارة من افخر أنواع السيارات.

سأل ذلك الشاب «خلف الدواح» عن ذلك «الكديش» وعما إذا كان قد مات وكان يود أن يعرف انه قد مات.

استغرب خلف الدواح من ذلك السؤال وعن الهدف منه فأجاب الشاب من دون تردد: «إذا كان قد مات لأعمل له قبراً عامراً. فلولا ذلك الكديش ما صرت بهذه النعمة»

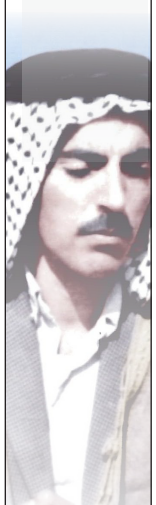

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

قراءة سريعة في رباعية "ابو كَاطع"

جاسم يوسف الياسري

اسمحوا لي ان اصحبكم في قراءة سريعة لعمل ادبي روائي ينتمي الى الادب العراقي الملتزم. ودعونا نقلب اوراقا في رباعية المؤلف (شمران الياسري) بشكل انتقائي.. اذن هو ليس عرضا كاملا» لأجزاء الراوية الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ، فلوس أحميد)، وانما بقصد اعطاء فكرة عن هذا العمل الابداعي..

أما من يرغب في قراءة الرواية بشكل كامل فقد قامت مطبعة الرواد باعادة طبعها ويمكن الحصول عليها من المكتبات..

ان قراءتي للرباعية ليست نصية، ولاهي بطريقة العرض النقدي.. فقد حررت نفسي من ذلك، ولكنني سأشير في بعض الاماكن الى النصوص المقتبسة من هذا الجزء او ذلك ورقم الصفحة.. وماعدا ذلك فهو يمثل فهمي لمقاصد المؤلف واجتهاداتي في تفسير ذلك.. مع بعض الهوامش والشروح.

آمل ان اوفق في ذلك.. مع ملاحظة انني ساستعمل اللغة الفصحى والشعبية، تماما كما فعل المؤلف..

مقدمة وتعريف باشخاص الرواية

ان رواية (ابو كَاطع) باجزائها الاربعة تؤرخ لحقبة زمنية طويلة في تاريخ العراق خلال القرن العشرين.. ويمكن لمن يقرأ الراوية ان يحدد تواريخ احداثها من خلال مايرد على ألسنة شخوص الرواية من حوارات.

فاحداث الرواية تبدأ بوصف الجو العام لجلسة في (رَبعة) احد رؤساء العشائر. والرَبعة بيت قصب متواضع لاستقبال الضيوف، وهو اصغر من المضيف، لان امكانات رؤساء العشائر انذاك محدودة..

الجالسون في الرَبعة هم شيخ (سعدون بن مهلهل) شيخ العشيرة.. وندماؤه:

(حسين ابو ناصر)، انسان متعلم نسبيا، يقرأ ويكتب (خريج الكتاتيب). والكتاتيب انذاك بمثابة تعليم عال، يوم لم يكن هناك عدد كبير ممن يقرؤون ويكتبون، حتى ان من تأتيه رسالة يبحث له عمن يقرأها. وتطلق تسمية (ملا) على مثل هذا الشخص، وهي غير تسمية رجل الدين.

وحسين ابو ناصر، أو ملا حسين يهوى الشعر الشعبي، يحفظه ويتابعه ويترنم به لحد العشق.

– الشخصية الثانية الرئيسة في الرواية (خلف الدواح) نديم الشيخ سعدون بن مهلهل.. وصديق الطفولة والصبا.. انسان تلقائي وصاحب لازمة يكررها باستمرار (بلابوش دنيا) وهي تعني كلمة استنكار وتعجب وربما (تُعسا لهذه الدنيا). وهو طيب السريرة.. مزوج، وسنتعرف عليه لاحقا بشكل اكثر.

– غافل شخصية سلبية همه الاول ان ينال رضا شيخ العشيرة (سعدون).

×الشيخ سعدون يوفر المكان (الربعة) ويقدم القهوة باعتبارة رئيس العشيرة والرجل الاول في القرية وربعته هي محل ادارة شؤون العشيرة، هناك شخصيات اخرى ترتاد الربعة ولكن اغلبهم مستمعون..

×الكل يشرب القهوة ويدخن (وماطول كَهوة وتتن كل الامور تهون) فوقت فراغ الفلاحين كثير في المساء، بعد عمل نهار، ولابد من السهر ولو لوقت محدود..

×باقي الشخصيات سنتعرف عليهم من خلال متابعة احداث الرواية.

يلتقط المؤلف اول خيط سياسي لروايته، فها هو الشاعر (حسين ابو ناصر) يُلقي شعرا شعبيا على شكل اهزوجة (هوسه) قالها ثوار الفرات:

(أكلن لج يجامعة الحسن عيناج.. فنّ كوكز وديلي إبعسّكره يدناج

كون اهلج جفوج احنه بطرب جيناج.. خّل يمّن كلبج يرعيعه)

رأيت من المناسب شرح هذه الأهزوجة:

تقول الأهزوجة وعلى لسان قائلها مخاطبا الارض التي يصفها بـ (جامعة الحسن) بأنه مستعد لتلبية ندائها (عيناج)، وهيهات ان يدنو منك كوكز وديلي بعساكرهم.

و(كوكز) هو تحريف لاسم (السير بيرسي كوكس)، و(ديلي) هو الأخر بريطاني.رمزان للاحتلال البريطاني الذي ثار ضده الشعب، حيث تركزت المعارك في مناطق الفرات (إن جان أهلج جفوج احنه بطرب جيناج) يطمأن قائل الأهزوجة أرضه بأنه إذا كان البعض قد تراخى في الدفاع عنها، فها نحن قد اتينا وكلنا شوق للموت دون أرضنا. فإياك.. إياك أن تخافي: خل يمن كلبج يرعيه. و(الرعيع) هو الخائف ومؤنثه (إرعيعة). إذن فهذه الأهزوجة تؤرخ لبداية احداث الرواية..

وأنا افهمها كالتالي:

إن ثورة العشرين ١٩٢٠ قد اندلعت ثم خمدت نارها لاسباب عديدة لا نريد الدخول في تفاصيلها، ويكفي أن نقول بأن طرفي المعادلة غير متوازنين.. جيش الدولة العظمى التي لاتغرب الشمس عن مستعمراتها وثوار لايملكون سوى أبسط أنواع الأسلحة بما فيها المَكوار وبنادق قديمة، واهم من ذلك فهم يملكون الحس الوطني.. وبالمقابل، جيش يملك طائرات ومدفعية ورشاشات تمطر الرصاص (مطر اللوز).

في رواية (ابوكاطع) هناك توثيق لكيفية نشوء النظام الإقطاعي.. لان شيخ العشيرة كانت له الوجاهة الاجتماعية وكانت مسؤوليته فضّ النزاعات التي قد تحصل مع العشائر الأخرى. كما انه وبحكم مركزه هذا، فهو المتحدث باسم أبناء عشيرته أمام السلطة.. أية سلطة كانت..

فالشرطي أو الجندرمة يقصد منزل شيخ العشيرة عندما يريد ابلاغ الفلاحين بأمر حكومي ان كان ذلك متعلقا بالضرائب او المطلوبين للعدالة أو لموضوع التجنيد الإجباري وما شابه.. ولا فرق إن كانت الحكومة محتلا عثمانيا او بريطانيا او في ظل مايسمى بالحكم الوطني فيما بعد...

تقول الرواية في جزئها الاول (الزناد) والذي يحتوي على الكثير من المفاتيح لاحداث لاحقة إن الحاكم الانكليزي ارسل في طلب بعض شيوخ العشائر الساكنة على ضفاف نهر دجلة وتفرعاته ممن لم يشاركوا في ثورة العشرين ووزع عليهم هدية (١٠٠٠) روبية. وأعرب عن رضا التاج البريطاني عنهم لانهم لم يشاركوا (بالقلاقل) على حد تعبيره مثلما فعل شيوخ وابناء الفرات.

يعلق الشاعر (حسين)، ملح الجلسة والأكثر وعيا والمتابع لتطورات ثورة العشرين:(هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله!!).

وهنا يحدد لنا المؤلف مكان احداث الرواية، فهي تقع في مكان ما من الجنوب وفي حوض نهر دجلة. اخذ (خلف الدواح)، البسيط التلقائي موضوع هدية الحاكم الانكليزي لبعض الشيوخ بشكل مختلف.. فهو يهّز يده ويكرر لازمته المعروفة (بلابوش دنيا.. ما يخسر بيها شي.. النوط أبو ميه هوه خّط يطبعونه بديهم.. وبلابوش دنيا). وفي هذا السياق، يمكن ذكر ما حدث بعد مرور حوالي ٧٠ سنة.. أي ما حصل من تكريم (فلوس الطبع) لبعض مايسمى في حينه بشيوخ التسعين.

وقد لحقت هدية الحاكم البريطاني عملية توزيع مضخات ماء على كل شيخ عشيرة.. وهذا الأمر في المفهوم الاقتصادي يعني إن البريطانيين قد أتاحوا للشيوخ وسيلة انتاج جديدة، ليتحول الشيخ من رئيس عشيره إلى إقطاعي. فهو يملك وجاهة اجتماعية وأرضا ووسيلة للإنتاج ودعما من السلطة إن كانت هذه السلطة محتلا أو حاكما من اهل البلد.

وتبدأ الأمور بالتسارع.. فالمضخة تحتاج إلى محروقات وتصليح وصيانة وشخص او اكثر يتولى ذلك. وهنا تستجد حقوق للشيخ.. فتصبح قسمة إيراد الأرض وفق مبدأ جديد (خُمسين والثلاث)، أي ٢٥ للفلاح و ٣٥ للمَلاك أو الإقطاعي. إذن، فقد بدأ الإقطاع وبدأت عملية استغلال جهود الفلاحين.. وصار هناك فرز وتباعد بين الشيخ وافراد عشيرته واصبحت العلاقة بينهما لها اسماء أخرى.. ليس شيخا وابن عشيرته بل إقطاعي مستغل وفلاح، وبمعنى آخر، أصبح بالإمكان وصف العلاقة بأنها بين السيد والعبد..

وهذا ماحصل تدريجيا بالنسبة للشيخ (سعدون بن مهلهل).. فقد تناقصت جلسات السمر مع الفلاحين واخذ سعدون يشعر بأنه اعلى مرتبة منهم. وبدل الجلوس مع الفلاحين، كان يزور اقطاعيين اخرين او يتردد على المدينة. وقد انعكست هذه السلوكيات الجديدة للشيخ على ابناء القرية عموما، لكنها بدت واضحة أكثر مع اقرب الناس اليه وهو الشاعر (حسين ابو ناصر) والذي كان الى وقت قريب يعتبره (ملح الكعده). تنصل الشيخ سعدون عن وعد كان

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

قد قطعه منذ زمن بعيد ولنقل قبل تسلمه (اكرامية الانكليزي) وسحب موافقته على تزويج ابنته (حسنة) من (ناصر) ابن حسين.. وبذلك فقد ذبح حبا كان يربط بين حسنة وناصر، اظهر لنا المؤلف لمحات من خلال الجزء الاول من الرباعية، وهو أول خيط اجتماعي يمسك به المؤلف في روايته.

اعتبر حسين تراجع سعدون عن كلمته اهانة له فبدأ ينقطع عن حظور جلسات السمر المسائية في ربعة سعدون، التي تحولت إلى مضيف كبير لا يسمع فيه الا الصوت العالي.. فصوت المضخة أعلى من كل الأصوات. نعود إلى خلف الدواح، فهو الآخر ناقم على سعدون، صديق الطفولة، بسبب هذا التبدل في سلوكياته. لكن طيبة قلبه تمنعه من الانقطاع عن مضيف سعدون لان خلف يعتقد بأن الصداقة (العشرة والزاد والملح) مسألة مبدئية لا يجوز التراجع عنها. يسافر الشيخ سعدون الى المدينة فيجلب معه زنادا (ابو الفتيلة) هدية لخلف الدواح فتصبح هذه الهدية طوقا جديدا في عنق خلف تمنعه من التنكر لصداقة الشيخ.

تمر الايام وتأتي لجان لتسوية الاراضي فيجلب الشيخ هدية أخرى لخلف الدواح هي زناد جديد يعمل على النفط او البنزين ويطلب منه ان يوقع امام لجنة التسوية بأن الاراضي (الديمية) التي يزرعها هي للشيخ وانه كان يدفع ضريبة عنها أيام العثمانيين نيابة عن الشيخ سعدون (احنه كرايب.. وماكو فرق ابيناتنه وسعدون شيخنا والعنده عندي ومابيناتنه فرق بس ماحّرم الله). لكن حسين ابو ناصر الاكثر وعيا يلوم خلف الدواح:

(ولك انت شمالك كلب سمج قشمرك بزناد ابو فتيله واخذ منك كاع الديمة؟).

إن شخصية خلف الدواح التي رسمها المؤلف بعناية تظهر لنا سجاياه وكيف انه يثق بالآخرين. ومن طيبة قلبه يغالي في ذلك(شيخنه سعدون ابن مهلهل ذهب تيزاب وما أظن يسويها وهو بنفسه كال شغلة روتين). ومع تقدم احداث الرواية يتضاعف عدد شخصياتها. هناك مضخة زراعيه ومراشنة سقي. إذن هناك حاجة لاستخدام سائق جديد للمضخة ومساعد له. وبسبب مراشنة المياه برزت الحاجة لان يصبح هناك من يتولى امر ذلك (مأمور). وبسبب زيادة الرقعة الزراعية أصبحت الحاجة ماسة لمن يسجل الحسابات (الايرادات والديون)، والذي سمي (كاتب الشيوخ). وبسبب وفرة المياه اصبح بالامكان زراعة محاصيل الخضراوات الصيفية.. ولهذا قدم الى القرية فلاحون متخصصون في هذا النوع من الزراعة قدموا من مناطق اخرى وهم مايطلق عليهم (الحساوية). وبسبب ازدياد عدد سكان القرى اصبح هناك دكان للبقالة. وبسبب يسر حال الشيخ وتضاعف إيراداته، ومن اجل الوجاهة الاجتماعية يستقدم الشيخ سعدون رجل دين (روزخون) في كل عام في شهر محرم لإحياء ذكرى الامام الحسين عليه السلام. صار بيت الشيخ الذي اصبح (قصر) يضج بالخدم والحشم.. كل هذه الامور وهذه الأبهة الجديدة باعدت بين الشيخ وابناء عشيرته. واستكمالا لهذا الانفصال والتباعد الطبقي، فقد زوّج الشيخ ابنته حسنه الى ابن شيخ آخر قريب من المنطقة وأسدل الستار نهائيا على قصة حب غير موفقة النهاية بين ناصر ابن الشاعر حسين وحسنة بنت الشيخ سعدون. وكرد فعل سريع قام حسين بتزويج ولده ناصر بشابة من القرية.

وتتباعد المسافة الاجتماعية بين الشيخ سعدون والفلاحين. وفي ظل اجواء التوتر يرتحل ناصر وزوجته الى مدينة الكوت وهناك يشتغل عامل في سدة الكوت. وقد أعجب المهندس بنشاط العامل ناصر فقرر ان يأخذه معه الى كركوك حيث هناك منشأة نفط باشرت عملها. ويخبرنا المؤلف بشكل سلس عن هذه المرحلة الجديدة في حياة العامل ناصر:

اصغى حسين بإنتباه الى مايرويه حمزة الخلف عن ولده ناصر.. استبد به واحد من الأخبار مفاده: إن ناصراً سينتقل الى كركوك بعد إنجاز سدة الكوت، لأن المهندس أعجب بمهاراته ويريده أن يعمل هناك..

تساءل حسين وخلف معا:

-هاي وين صايره كركوك؟

-فوك من بغداد

حرك حسين رأسه وقال:

- سامع بسمها من المثل اليكَول: إمجّدي كركوك، إيجدّي وخنجره بحزامه!

وقال خلف

- واسمها معلوم بالسبلان الزينه (سبيل كركوه).

وقال حمزه:

-منّاه وغادي، لا تنعرف بمجاديتها ولا بسبلانها، تنعرف بنفطها..

يصبح (ناصر بن حسين) العامل في شركة نفط كركوك قائدا» نقابيا» يدافع عن زملائه، فيتم اغتياله مع عدد آخر من العمال من قبل قوات السلطة وبتحريض من شركة النفط.. وهو ما عرف (بمجزرة كاورباغي).. فما هو حال والده حسين؟ ألم يترك القرية ولده ناصر بسبب الخلاف مع الإقطاعي الجديد؟ ألم يستشهد في كركوك على يد السلطة؟ أليس هذا كافيا لأن تزيد نقمته على الإقطاع والحكومة..؟!. ويموت حسين كمدا» وحزنا على ولده ناصر!.

إن من يقرأ الرواية سيلاحظ كيف بنى المؤلف شخوصها:

حسين: شاعر ذو حس وطني يترنم بأشعار ثورة العشرين، ولده ناصر ينغمس في العمل النقابي ويستشهد في مذبحة (كاورباغي) في كركوك..

- يترك الشهيد (ناصر) خلفه ولدين وبنت وزوجة، حيث ينتقل الجميع إلى بغداد..

- الولد الكبير (فاضل) يصبح معلما» إضافة إلى اهتماماته الأدبية والصحفية.

- الأصغر(كامل) يصبح عامل مطبعة وينحاز للفكر اليساري..

ولمعرفة المزيد عن عائلة الشهيد ناصر سنتطرق إلى تفاصيل أكثر بإعتبار أن فاضل وكامل وعمهما (الملا نعمه) سيصبحون لاحقا من شخوص الرواية المهمين..

- فاضل، يهوى الأدب.. كتب الشعر في البداية.. ثم تركه واتجه للقصة، التي تركها هي الأخرى واتجه للصحافة.

وفاضل هذا ذو حس وطني عارم لحد التطرف، لكنه لم ينتم إلى أية حركة سياسية أو حزب، فهو يكره الالتزام ويكره (الضبط الحديدي). وهو من الشباب المحسوبين على المثقفين، لكنه قلق.. ضائع، وهو مزاجي.. هازل مشاكس يتناول المشروبات، وعندما يكون سيئ المزاج يخرج للشارع ليهتف: يسقط جلالة الملك، أو يسقط سيدنا الوصي..

عرفوا بالتجربة أن لياليه المزعجة تبدأ من معاكسة صغيرة.. أو نصيحة من أمه بعدم التجديف والتعريض بطقوس الدين.

صارت والدته تضمر العتاب، حتى يصحو من سكره، لكنه ينكر التهمة ويتظاهر أمامها بعدم التعرض للدين.

بيد إن المزحة تحاصره أحيانا فيترصدها مساء، ساعة تتوجه إلى القبلة وتستهل صلاتها بأدعية غدت معروفة له، سمعها مذ كان طفلا»، ومازالت تكررها من دون زيادة أو نقصان:

- مسينا بمساك ونطلب رجاك...

مسية العافيه عليكم يهلنا.. دخيل راعي المسية وفاطمة الزجية.

فيرفع فاضل صوته بكلمات لاتفهمها الأم وحين تسأله:

- شتكَول يمّه؟

- دعيان بالإنكّليزي

- ليش ما تدعي مثلنا بالعربي؟

ما أكثر مناسباته لشرب العرق!

حتّم على شقيقه (كامل) أن يذهب بنفسه لشراء نصف بطل عرق:

- المناسبة تهمك بالدرجة الأولى.. أنت المضيّف ونحن الضيوف.. إنها مناسبة إطلاق أول قمر صناعي سوفيتي..

وأخذ نصف دينار من جيب عمه (الملا نعمه) ليلة إعلان الوحدة بين مصر وسوريا: هذه مناسبة تهمك.. أنت قومي أصيل (على شوية شيوعي) وقال لأمه في مناسبة دينية: عليك أن تدفعي ثمن العرق.. فأنكرت عليه فعله:

- بمثل هالليلة تشرب عركَ يامنعول!

وبلغته الذكية يخبرنا المؤلف أين وصلت أحداث روايته، ويستثمر شخصية فاضل المرحة فيوظفها لذلك، عندما يطلب من أفراد أسرته أن يجمعوا له مبلغا» صغيرا» من المال لشراء العرق، إذ يقول بما معناه:

-أني قررت ما أشرب الاّ بالمناسبات، وهاليوم أكو مناسبة تهم الجميع.. مناسبة تشكيل الجبهة الوطنية..

إذن فالمؤلف يخبرنا من خلال هذه القفشة، إن أحداث روايته قد وصلت إلى العام ١٩٥٨ وقبل الإطاحة بالنظام الملكي.

في صيف العام ١٩٥٨ وخلال العطلة الصيفية وبإلحاح من والدته، يزور فاضل القرية التي ولد فيها والده وأخواله.. وبعد الاستقبال اللائق به من قبل أهل القرية كونه (ابن أختهم.. وأفندي ومعلم.. ويطلع اسمه بالجرايد).

في هذه السطور، يظهر لنا المؤلف تعّطش وندم الفلاحين وحسرتهم لأنهم حرموا من دخول المدارس وتعلم القراءة والكتابة، من خلال محاورة بين فاضل وخاله (سويلم الصكَر):

حين غربت الشمس، اقترح سويلم على فاضل أن يخلع نظارته الطبية فتساءل فاضل:

- ليش خالي

- جا غير الشمس غابت

- شنو علاقة الشمس بنظارتي؟

- جا غير لابسهن عن الشمس

- لا خالي، هذني للقراية والكتابة

- معنى، كون واحد يلبسهن، يقرا ويكتب؟

- طبعا»..!

- جا ما تطيني اياهن

- وانه بيش أقرا وأكتب؟

- إشتر غيرهن

- غاليات!

- بيش؟

- إهوايه فلوس!

- يا خالي والعباس أبو فاضل، أبيع الهوايش وأشتريهن.. انه هوايه مندوم على القرايه والكتابه

- الهوايش اشكثر؟

- الكبار أربعة

- أربعه ما يكفّن، لكن تكَدر تشتري بيهن نظارة بس تكتب بيها!

- لا يا خالي، أريد أقرا وأكتب

- ينرادلك ثمن هوايش!

- يا خالي جا شلون بيّ؟

أوشكت الصفقة أن تتم بين الخال وإبن أخته، لولا تسرّع فرحان الذي أفسدها بضحكته.

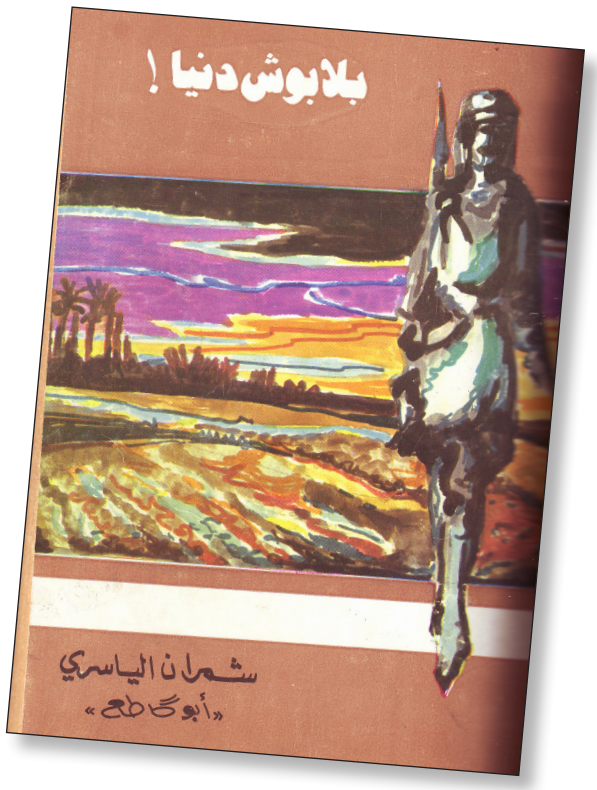

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

في ذكرى أبو كاطع شمران الياسري

كي لاننسى خلف الدواح :

ولد «أبو كاطع» شمران يوسف محسن الياسري عام ١٩٢٦ في محافظة الكوت، قضاء الحي، قرية « محيرجة» التي تسمى الان ناحية « الموفقية». وإنحدر من عائلة «سادة» ياسرية تمتعت عائلته بمكانة دينية مميزة في حوض الفرات ودجلة، إذ إن سيد مالك الياسري هو إبن عمه. علّم «أبو كاطع» نفسه الكتابة بعد أن علمته والدته القراءة، حيث كانت تجيد قراءة القرآن فقط. يقول «أبو كاطع» عن هذا في رسالة خاصة للدكتورة سميرة الزبيدي(١) : ـ (كانت أمي تُحسن قراءة القرآن فقط، والغريب إنها كانت تقرأ القرآن جيداً.. ولكنها لا تعرف قراءة سطر واحد من كتاب آخر.. ولا تعرف خط إسمها.. ومع ذلك علّمتني قراءة [جزء عم].. وحين إمتلكتُ مفاتيح تركيب الحروف علّمتُ نفسي الكتابة).

كان «أبو كاطع» عصامياً، بكل معنى الكلمة.. لم يتخرج في جامعة أو معهد أكاديمي، حتى دراسته للصحافة في السبعينيات في معهد الصحافة الدولي في ألمانيا الديمقراطية ـ آنذاك، لم يكملها..! ماكان يطيق الجلوس على كرسي الدرس وماكان يطيق قيود الدراسة،

ضياء حميو

النشأة والبدايات

[يشير في حكاياته . المجموعة الأولى.] (٢) بصراحة «أبو كاطع» إلى كيفية تعلمه الإنكليزية.. عن طريق قاموس (إنكليزي. عربي) في السجن حيث كان يحفظ المفردات.

عمل أوائل الخمسينيات في مشروع الدجيلة الزراعي، ولكنه، وعلى أثر فشل المشروع غادر باتجاه بغداد في العام ١٩٥٤- ١٩٥٥ .

وفي بغداد كان يَدرس مساءً في المدرسة « الأهلية».. حيث تعلم أصول المحاسبة، أما نهاراً فإنه كان يشتغل محاسباً في شركة « عبد العزيز ناصر «.

أشتغل عام ١٩٥٧ في وزارة الأعمار(٣).. ثم عمل مديراً لقسم التوجيه والنشر في. وزارة الإصلاح الزراعي. بعد ثورة ١٩٥٨.

مشواره في الصحافة والإعلام

كُنيّ «أبو كاطع» بعد أن اشتهر برنامجه الإذاعي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، (احچيها بصراحه يابو كاطع) وهو الأكثر شهرة في أعماله (٤)(كانت طريقته الإلقائية لحكايات القرى والأرياف ساخرة، ومريرة وتحمل الشيء الكثير من الرفض والتحدي مجسداً تلك الحكايات بروح البطولة وإثارة الجدوى والتحذير من انحراف المسيرة والدفاع عن الفقراء).. لكن البرنامج توقف وأعتقل «أبو كاطع» عام ١٩٦٢ أثر توقيعه على نداء السلم في كردستان. الصحافة لديه هي همٌ يومي... ويقول فيها (٥)(الصحافة لدي ليست دعابة فحسب، بل هي مهنة الكشف عن المشاكل الحقيقية التي يعاني منها المجتمع، وتحليلها ونقدها وتقديمها للقراء على نحو يساعدهم في تلمس الطريق). توجه «أبو كاطع» للصحافة عام ١٩٥٣ أي قبل أن ينتمي إلى الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٥٦.

ففي العام ١٩٥٣ أصدر صحيفة محلية، سرية أسمها. صوت الفلاح. مع أربعة فلاحين ومهندس زراعي في مشروع الدجيلة الزراعي وهي اول مرة في تلك المناطق يُصدر الفلاحون صحيفة سرية تدافع عنهم وعن المسحوقين وتنشر آراء جديدة في الجانب السياسي والاجتماعي.

هكذا كانت البداية مع الصحافة. وما بعد ثورة ١٤ تموز مباشرةً عمل في بغداد في صحيفة «صوت الأحرار»، «والبلاد»، «والحضارة « بالإضافة إلى برنامجه (احچيها بصراحه يابو كاطع). بعد توقف البرنامج العام ١٩٦٢ يسجن ويتم تنقله بين سجن بغداد المركزي وبعقوبة والعمارة. ولحسن الحظ يُطلق سراحه قبل ٨ شباط ١٩٦٣ ليختفي... إذ يتمكن من التوجه إلى الريف سراً ويظل متخفياً حتى عام ١٩٦٨. أطلق لحيته وجاب الريف في الوسط والجنوب واستخدم إسماً مستعاراً هو «حسن» ليُصدر خلال فترة الخمس السنوات من التخفي صحيفة (الحقائق) وهي نشرة خاصة إسبوعية لمنظمة الكوت المحلية إذ كانت توزع على المناطق التابعة «للكوت» وريف «الكوت الجنوبي» (الذي يمتد إلى الناصرية)، والتنظيمات والمناطق القريبة منها وغالباً ما كان يُستخدم الفرس في توزيعها. وكان يقوم بالإشراف على تلك المهمة صديقه ورفيقه أبومحيسن . الشهيد «أحمد صالح العبيدي» الذي استشهد عام ١٩٧١ أثناء (زركه) حكومية على ريف الكوت الجنوبي.. كذلك كان يقوم بالمهمة أيضاً -أبو عليوي- (هاشم محسن) (الذي أستشهد بدمشق. لا بزركه. حكومية بل بأجواء الغربة والانكسار).

في الفترة الثانية بعد ١٩٦٨ كتب «أبو كاطع» في «التآخي» وصحيفة «طريق الشعب»، وكذلك في «الفكر الجديد».. وكان مديراً لتحرير مجلة «الثقافة الجديدة» التي صدرت في العام ١٩٥٣.

عموده في طريق الشعب ـ» بصراحه ابو كاطع»

قد يتذكر الكثير من القراء، أعوام السبعينيات. حيث كان الناس يقرؤون صحيفة «طريق الشعب» بالمقلوب.. أي من الصفحة الأخيرة.. لأنهم كانوا يريدون الإطلاع على حقيقة الأوضاع من خلال عمود»بصراحه ابو كاطع». كان عموده مجساً.. . مرهفا.. حلواً شفيفا.. رغيف خبز ساخن.. ثرّاً.. بالحكايات والأقاصيص، الحكم والامثال، الشعر والمفارقات.. كلها ممزوجة.. بسخرية شفيفة حزينة.. تمس شغاف القلب والعقل معاً، بتوحد ندر مثيله في عالم الصحافة..(٦) (ما شّكل الذخيرة الإبداعية للكاتب «أبو كاطع» هو هذا الحشد الفلكلوري من الحكاية والشعر الشعبي والغناء وأغاني العمل والتنويم والأعراس والمآتم والأساطير والمفارقات اليومية والهم السياسي).

وفي لغته يقول غائب طعمه فرمان:.. (٧) (لغة مضمخة بنكهة انسان خبر حكايات العفاريت، وأشباحهم وعرف تقلبات الزمان وشقاءاته، وأحابيل ذوي المصلحة.. إنه إنسان ثابت في أرضه، يعرف كل شبر منها، عاليها وسافلها، حلوها ومرها.. مذاق ثمارها، وملوحة عرق الكدح فيها).

ماكان الناس يجدون في «أبو كاطع» بعموده صحفياً.. يقول كلمة حق بشأنهم.. بل كانوا يجدونه مكدوداً.. متعباً مثلهم.. إبنهم الذي لم يتنكر لهم.. لسان حالهم الذي لم يتعلم المحاباة.. فيما يتعلق الأمر (حچاية الصدك). كان خصومه في السلطة وخارجها، (كما يشير شعبان) يقرأون عموده ليعرفوا مواطن الضعف والخلل في سلطتهم وأشخاصهم.. وليجسوا نبض الشارع..! إبن المدينة والريف على حد سواء يقرأ هذا العمود.. بما فيهم من لايجيدون القراءة والكتابة إذ ينصتون لأحدهم في الدواوين.. تماماً مثلما كانت حكاياته في الإذاعة في الفترة المشار اليها .(٤)

لغة رصينة محكمة البناء.. ليست بمفتعلة.. بالإضافة الى بساطتها وسلاستها وبنائها التكنيكي الرصين.

في «أبو كاطع» (٨) (تعبر الحياة المألوفة اليومية عن نفسها بيسر بلا ملحمية ولا رمزية ولا إطناب او تعاطف خارجي، وبلغتها اليومية الخاصة المزدحمة بالأمثال والمجازات والكنايات المأخوذة من نفس البيئة .وفي هذا العمود كانت البداية لخلق شخصيته المتفردة والأثيرة (خلف الدواح)..!!.

لا يمكن فصل شخصية «خلف الدواح» عن «أبو كاطع» ولا فصل الأثنين عن ريف العراق.. وإذا ما مثل «خلف الدواح» شخصية الفلاح القادم من ريف الجنوب.. فإنه قد تماهى بشخصية «أبو كاطع» الحقيقية.. فعلى لسان الأول صار يحاكي ذاته ويتجاوزها ليناقش السياسة والأحزاب والأيديولوجيا بل ينتقد كل ذلك بلغة ريفية.. مليئة بالحكمة والسخرية.

كانت الكثير من الرسائل ترد من القرّاء.. يبثون همومهم وأشجانهم ومطالبهم الى «خلف الدواح» ليصوغها «أبو كاطع» على لسانه حقيقة عارية تماماً..

شخصية (خلف الدواح) هذا الفلاح العراقي القادم من الجنوب الى بغداد في الخمسينيات هارباً من الإقطاع والفيضانات (القهر الأجتماعي والبيئي) تزاوجت وتماهت بشخصية «أبو كاطع».

وبفضل هذا، إستطاع من تغيير النظرة الى هذا الفلاح في الأدب والصحافة العراقية.. إذ إن « «أبو كاطع» وإن صنف كصحفي.. لكن خصوصيته تأتت من كونه فلاحا أولاً.

بدأ يكوّن إسلوبه الذي ترك بصماته في عالم الصحافة منذ توجهه الى بغداد عام ١٩٥٤ وبشكل خاص أواخر الخمسينيات.. حين غدت الصحافة مهنةً له.. وبدلاً من أن يكون الفلاح هو موضوع السخرية.. كما كان سائداً قام «أبو كاطع» بقلب المعادلة ليجعل إبن المدينة شريكاً فيها.. وأحياناً موضوعها، راسماً صوراً كاريكاتورية لم تعرفها الصحافة من قبل عن أبن المدينة، من خلال توظيفه تراث الريف الفني في ذلك.. لم يعرف المواربة، كان يثق تماماً بمقدرة قارئة على قراءة مابين السطور حين يتعذر الإفصاح عن الحقيقة بشكل مباشر ويحترم ذكاءه أياً كان مستواه المعرفي وهو يصفه مثل «المفتح باللبن». لايمايز في توجيه نقده

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1692)
السنة السابعة
الخميس (7)
كانون الثاني2010

قد يتذكر الكثير من القراء، أعوام السبعينيات. حيث كان الناس يقرؤون صحيفة «طريق الشعب» بالمقلوب.. أي من الصفحة الأخيرة.. لأنهم كانوا يريدون الإطلاع على حقيقة الأوضاع من خلال عمود «بصراحه ابو كاطع».. كان عموده مجساً.. مرهفا.. حلواً شفيفا.. رغيف خبز ساخن.. ثرّاً.. بالحكايات والأقاصيص، الحكم والامثال، الشعر والمفارقات..

وإحتجاجه أكان المخطيء رفيق درب ام عدوا..!! لكن هذا الأمر ماكان يمكن أن تهضمه العصابة الحاكمة (ماكان يشتم بل كان يسخر ومن خلال سخريته كان يعرّيها).. فتبين سوءاتها وقبحها، جهلها وبربريتها.. كيف يمكن التحالف مع كل هذا..!؟ كان لابد أن يوقف من النشر وهذا ماكان، جرت محاولة لدعسه بسيارة على طريق الكوت ولكنها فشلت فأعدوا تهمة تهريب السلاح بغية إعدامه.

يؤكد «حميد الياسري»(٩) إبن أخي «أبو كاطع» إن السبب في إرسالة للدراسة هو إبعادة عن الجريدة في بغداد، لأنه لم يكن منسجماً مع النهج السياسي السائد حتى أعفي تماما عن الكتابة عام ١٩٧٦ فإضطرالى مغادرة بغداد متوجهاً الى» براغ».

وبنفس القضية يقول «أبو □اطع» في رسالة موجهة الى الدكتورة « سميرة الزبيدي»(١٠) واصفاً تلك المرحلة: ((غادرت العراق أواسط العام ١٩٧٦ هارباً من تهمة –اقلن– أقلن الإعدام.. تهمة توزيع السلاح والفايل امام محكمة الثورة)).

الى براغ حمل دفتراً أطلق عليه «دفتر الممنوعات» يضم بين دفتيه المواد التي لم توافق هيئة تحرير صحيفة «طريق الشعب» و «الفكر الجديد» على نشرها..!!

تجدر الإشارة الى إن منفى «أبو كاطع» في «براغ» لم يكن هيناً.. إذ إنه أيضاً تعرّض الى المضايقة والمحاسبة.. اكثر من مرة.. وجرت محاولات مغرضة من قبل البعض وبأساليب رخيصة لتشويه سمعته ومواقفه، وكان سيف تجديد الإقامة له في» براغ» مسّلط دوماً على رأسه.

كان آخر ممنوعاته مادة كتبها الى «طريق الشعب» قبل مغادرة بغداد.. تحدث فيها عن –الظهر والظهيرة والظهير– والظهير هو الحليف.. المقصود البعثيين.. زمن الجبهة..!!

تحدث «أبو كاطع» في إحدى الليالي الخريفية من عام ١٩٧٦ مشيراً الى إنه يشعر ضمن المشهد السائد مثل (المعّكل بالمرقص)(١١) وهو معّكل بمرقص التحالف.. الناشز..

تنبّه «أبو كاطع» مبكراً الى هذا الخطل.. وعبثيته، ووصوله الى طريق مسدود.. خصوصاً مع إستخدام الطرف القوي لهذه العلاقة ليكون أقوى «أبو كاطع» في هذا حكاية.. تجدر الأشارة لها.. وردت في روايته» قضية حمزة الخلف» (١٢) : (في إحدى ليالي الصيف فزّ الخروف من النوم، وسأل من هذا الذي وطئني؟ فأجابه العنز: أنا سيدك الصخل.. ووقف يباهي بقرنيه، مغروراً بشحمه ولحمه.. يتنسم هواء الليل العليل.. مرت الأشهر.. وجاء الشتاء وذات ليلة قاسية البرودة صحا الخروف من نومه وتساءل من هذا الذي يختل بجانبي ويحتمي بفروتي؟ فاجابه العنز: انا خادمك الصخيل..!!).

في رسالته السالفة الذكر للدكتورة سميرة الزبيدي يضيف «أبو كاطع»: بقيت لاجئاً غير سياسي في (تشيكوسلفاكيا) أظنني كنت أول لاجيء أو مهاجر.. ففي العام ١٩٧٦ كانت الجبهة ما تزال في.زواك العرس .والبخور يفوح من طيات ثيابها.

كان في مجالسه الخاصة يطلق على الجبهة تسمية الجبحه (أي العثرة أو السقطة) .

اللغة العامية

في أواسط السبعينيات، إتخذت السلطة موقفاً سياسياً ضد العامية بدعوى حماية الفصحى.. (الأمر الذي نكصت عنه بعد إندلاع الحرب مع إيران عام ١٩٨٠ وحاجتها للعامية للدعاية للحرب).. وحقيقة موقف السلطة من العامية.. هو إن أغلب من إستخدموا العامية فنياً كانوا محسوبين على اليسار بطريقة أو أخرى!!.

(اللهجة الجنوبية) لهجة ساحرة.. ثرة تنساب بموسيقى خاصة.. واذا ما جاز لنا أن نطلق صفة ذكية على لغة ما.. فان الجنوبية كذالك إذ إنها تزاوج بين تراث الفصحى والموروث المحكي.. كذلك إستخدامها للحسجه «التورية»، بتلقائية وبمنتهى البراعة. وعامية «أبو كاطع» من هذا المخزون.. ولذا تمتعت بقوة.. ومرونة، ونفاذ معاً (١٣) (وقد إنفرد «أبو كاطع» بهذا الفن الرفيع. وحاولت السلطات الفاشية» قبل وبعد ١٩٦٨» أن تجد لها فنا يشبه الحكاية الشعبية التي قدمها «أبو كاطع» كي تكون خصماً لدوداً له لكنها باءت بالفشل).

في البدء كان هاجس»أبو كاطع» من إستخدامه للعامية هو التوجه لمخاطبة الفلاحين ولكنه فيما بعد تجاوزها الى أن تشمل إبن المدينة ولتغدو سمة مميزة من ميزات أدواته الإبداعية. (١٤) (لقد كان «أبو كاطع» يملك صفة رائعة متأصلة فيه وهي التساؤل، إنه مثل فلاحه، يجابهك دائماً في جلساته الودية بالأسئلة التي تجعلك أحياناً في موضع محرج، أو تضعك على المحك، فإما أن تجاريه بتساؤ لا ته ا لمشر و عه واما أن تبلع لسانك وتسكت، والعجز عن إتخاذ موقف، وهذه الصفة جعلها «أبو كاطع» ملكاً مشاعاً للراغبين في تبنيها بإخلاص من أبطال قصصه.

وذلك ينبوع لحرارة الصدق فيما خلفه لنا من أدب قصصي وخواطر).

فنه الروائي

تعرض «أبو كاطع» الى العديد من الممنوعات.. سجن، إختفاء.. منع تقديم برنامجه الإذاعي عام ١٩٦٢.. وصولاً الى رفض طبع رباعيته(١٥) أو تقديم الدعم لها من قبل وزارة الإعلام.. فإتخذت مجلة الثقافة الجديدة عام ١٩٧٢ قراراً بنشر الرواية طالبةً من الراغبين في إقتنائها تسديد ثمنها سلفاً(١٦).. وتم لـ«أبو كاطع» ماأراد.. حيث أقبل العديد من القراء على شراء روايته قبل صدورها.. وهذا يفسر ويوضح تماماً مدى العلاقة وحميميتها التي ربطت «أبو كاطع» بقرائه.. بل وثقتهم بنتاجه الأدبي.

الرباعية هي العمل الروائي الأول له وكانت بأربعة أجزاء: الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ، وفلوس أحميّد.

تدور أحداث الرواية في إحدى قرى الغراف على مدى يقارب أربعين عام، تبدأ الأحداث وذكريات ثورة العشرين ما زالت طازجة تحديداً عام ١٩٢٣، حيث تسود الريف علاقات شبه مشاعية، ساعدت على بقائها قيم قروية موغلة في قدمها وقسوة الظروف المختلفة الأمر الذي إستلزم حياة جماعية لمجابهتها.. وفي الرباعية تصوير رائع وذكي لعملية تفكيك المشاعية الريفية. في تلك الفترة كان الإستعمار البريطاني قد حسم أمره في عدم إدارة العراق من خلال الضم المباشر كالهند، (الخيار الذي ابعدته ثورة العشرين)، نصّب الإنكليز ملكاًعربياً للعراق، ولكن إدامة الملك تستوجب قاعدة إجتماعية، مميزة تُسَهّل مهمته.. ولتحقيق هذه المهمة قام الإستعمار مستفيداً من تجربته في الهند ومصر بتفكيك وتحطيم منظم وهاديء في البدء للمشاعية هذه (إذ لاسلطة لفرد على آخر إلاّ القيم والأعراف).. وهذا ما يتعارض كل التعارض مع شروط بناء قاعدة الحكم آنذاك.. وشرطها الرئيسي الإذعان...!

كيف يُذعن أفراد العشيرة بدون وجه حق لشيخهم..؟! إذ كان الشيخ خيارهم.. يشبع حين يشبعون ويجوع حين يجوعون!؟.

حين يستدعي الحاكم الأنكليزي شيوخ العشائر يكون أحد المدعوين «سعدون ابن مهلهل» (ماكان الأخير يطيق لبس اللباس الداخلي)، وفي خضم إستعداداته للسفر وملاقات الحاكم يستعير نعلا من «أبو البينة».. إذ إن نعله البالي لايليق لوجه الحاكم الإنكليزي على حد تعبير «حسين» شاعر القبيلة وحكيمها(١٧).. حين يكون الموسم الزارعي جيداً فهو للجميع وحين يكون خلافه.. فشيخ العشيرة ملزم بالتقشف مثلهم، قوانين الطبيعه هذه في ريف العراق الجنوبي ماكان لها أن تساعد في تثبيت الحكم الذي شاءه الإنكليز للعراق.

ولذا قام المستعمرون بمنح إمتيازات في المال والأراضي و»المكنَنَهْ « خصوا بها رؤساء العشائر، مما مكنهم من زراعة «السيح» بدل الإقتصار على الديم (الأمطار) الأمر الذي سهل تحقيق فائض إنتاج لديهم وأفرزهم كطبقة إجتماعية مميزة لها شروطها وظروف ديمومتها التي تلتقي مع ا لمستعمر . . روحياً ومادياً.. وتتعارض مع العوام الذين صا ر و ا أجراء بعد أن كانوا شر كا ء وأولاد عم في المشاعة ا لر يفية ا لمفككة . . وإنتقل الشيخ ليسكن في قصره بعيداً ومميزاً عن بيوت العشيرة.

في الرباعية يرد تفهم هذا التحول وإستهجانه على لسان «حسين» في خضم رده على زوجته بشأن عهد خطبه قديمة (بنت «سعدون» لولده «ناصر») دارت بينه وبين سعدون في أيام ماقبل التحول الإقطاعي(١٨) (سعدون لم يعد منّا، إنفصل عنّا نهائياً. اصدقاؤه من الشيوخ وكبار «السراكيل»، لايستمريء إلا النعوت التي يطلقها عليه «الخضّارة» وأصحاب الإبل. صار إسمه الرسمي « الشيخ « وطويل العمر. يُجاب إذا صوّت بكلمة «عونك» ولايخاطب إلا بلفظ محفوظ.. وأحسب إنه يتقزز من مخاطبتنا إياه بلا ألقاب ولا أدعية بطول العمر).. في الحالة هذه حتى الزواج يغدو خروجا ً عن قوانين الحياة التي إعتادوها وتأقلموا معها.. لايستطيع «حسين» أن يتصور زوجة المستقبل لأبنه من دون ان تكون شريكا في العمل كما هي زوجته وقبلها أمه.. وما إعتادته العشيرة.. منذ زمن بعيد(١٩) (شنهو معنى تحصين بت سعدون؟ «يا بعد حصان إبوي».. وما دام صارت البت إمحصّنه شنهي رفجتها وي ناس مثلنا؟ من كون مَرْت الفلاح إمحصّنه «يابعد إحصان ابوي!» لازم يشتريلها وصيفه تخدمها. ومن كون مرة الفلاح بكبعة وسرسوحه «يابعد كبعة أمي وسرسوحتها» ياهو اليحصد وياهو اليحّضن؟).

النهم البسيط للتمايز يكبر ليتضخم ويغدو إبتلاعاً سافراً...

حصة المضيف (الديوان) التي كانت تدفع طوعاًلتغطية مصاريف العشيرة في (الديوان).. إستقبال الضيوف، الأفراح،والأتراح، القهوة، بل حتى «التتن» (التبغ) الذي يدخنونه..! في الديوان هذه الحصة صارت تدفع أضعافاً مضاعفة من دون أن يكون الشيخ ملزماً بأي شيء تجاه العشيرة عدا كونه رمزاً ماعاد بإستطاعتهم خلعه.

(إن أهمية الرباعية تكمن في محاولتها، فهي أول طرح في تاريخ الرواية العراقية لقضية الأرض من منظور الثورة)(٢٠).

إن هاجس أن يصبح «أبو كاطع» روائيا لاصحفياً وحسب..كان يلازمه..خزين هائل من التجربة الذاتية المميزة، والحكايات التي لاتنضب.. ماكان للصحافة أن تستوعبها لوحدها.. وهكذا ولدت الرباعية.. يقول «غائب طعمة فرمان» في لقائة الأول بـ«أبو كاطع».(٢١) (في العام ١٩٦٩ في أحد مقاهي شوارع السعدون كان اللقاء، وبدا كأن أحدنا يعرف الآخر منذ عهد نوح، وهذا التعبير مستلهم من روح «أبو كاطع».. أسرّ لي قائلاً.. هل تحب القراءة..؟.. قراءة أي شيء.. نعم دفتر متواضع. القضية كلها يامحفوظ السلامة يعجبني أصير روائي.. چا بس إنتوا..!! شوفها واحكم عليها رواية لو خرط..!).. ثم يسترسل «فرمان» واصفاً عوالم الرواية.. (أخذ يتنامى في خيالي المبصر عالم متجسد رحب مغمور بأنفاس الريف وآناسه، صنعه قلم ذو دراية ممتازة بما يريد أن يقول.. حب عارم للوسط الذي يصوره ومعرفة مستفيضة بخبايا الحياة الريفية وحنايا سكانها الواقعيين الى حد إحساس القاريء بأنفاسهم تدفيء قلبه).

غائب طعمة فرمان يكتب عن ابو كاطع

شمران الياسري
بريشة الفنان الكبير فيصل لعيبي

في عام ١٩٦٩ حين عدت إلى العراق وبعد غيبة تسع سنين، تعرفت على (أبوكاطع) في إحدى مقاهي شارع السعدون في بغداد، وبدا وكأن احدنا يعرف الآخر منذ عهد نوح، وهذا التعبير مستلهم من روح (أبوكاطع). وعندما افترقنا اسر إلي إن لديه (محاولة لكتابة رواية). وسألني عما إذا كان لدي الوقت لأقرأ بعض ما كتبه، وأعطيه رأيي الصريح فيما إذا كان من الممكن أن يسمي ذلك رواية أم (خرط) يعني (كلام فارغ)، وفي اللقاء الثاني جاء بدفتر سميك ونظم كله بسطور متراصفة. وفي بيتي حين أخذت اقرأ الدفتر، بدأ يتنامى في خيالي المبصر عالم متجسد رحب مغمور بأنفاس الريف وأناسه، صنعه قلم ذو دراية ممتازة بما يريد أن يقول، وحب عارم للوسط الذي يصوره، ومعرفة مستفيضة بخبايا الحياة الريفية وحنايا سكانها الواقعيين إلى حد إحساس القارئ بأنفاسهم تدفئ قلبه.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم
الاشراف اللغوي : يونس الخطيب